جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ..
الرياض

مجلة كلية العلوم الاجتماعية

العدد الخامس . ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

مطلع القرن الخامس عشر الهجري .

العلاقات السياسية
بين دولة الخطا والدول الإسلامية المعاصرة

بقلم
الدكتور حامد غنيم أبو سعيد
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك
بكلية العلوم الاجتماعية

أ ــ مقدمة:

الخطا، بفتح الخاء أو كسرها، وكذلك ختاى وأحيانا خطاى، هى الاصطلاح الذى أستخدمه المؤرخون(١). المسلمون في الحديث عن تلك الدولة التى سيطرت على بلاد ماوراء النهر والتركستان، إبتداء من سنة ٥٣٦هـ(١١٤١م) ولمدة تزيد على ثمانين سنة.

والخطا في الأساس قبائل أو جماعات تنحدر من أصول منغولية على أرجح الآراء، وإن اصطبغت فيما بعد ببعض الملامح التركية، و يرتبط تاريخ هذه القبائل بالأطراف الشمالية من بلاد الصين ابتداء من القرن الرابع الميلادى، وهناك، وفي القرن العاشر الميلادى قامت لهم دولة تعرف في المصادر الصينية بدولة أسرة لياءو(Leao).

وفي القرن الثانى عشر الميلادى، بين سنة ١١١٦، ١١٢٣(العقد الثانى من القرن السادس الهجرى) أسقط غزاة من الشمال حكم دولة لياءو في شمال الصين، فتحرك فريق كبير منهم صوب التركستان وبلاد ماوراء النهر، وبعد صراع لم يستغرق طويلا نجح الخطا في إقامة دولة لهم على أنقاض حكم الأسرة الإسلامية التى كانت لها السيادة هناك، تلك هى الأسرة القراخانية،(٢) التى كانت تحكم المنطقة منذ الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى.

وعلى الرغم من قصر عمرها فإن دولة الخطا قد لعبت، بعد أن سيطرت على تركستان وماوراء النهر، دورا بالغ الأهمية في تشكيل التاريخ السياسى لعدد من الأقطار الإسلامية الشرقية، وذلك من خلال علاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المعاصرة لها، وخاصة تلك الدول التى تشكل خط الحدود الإسلامية في هذه النواحى.

والدول الإسلامية المعاصرة لدول الخطا، والتى نعنيها هنا، أربع دول هى الدولة السلجوقية في خراسان وتابعتها الدولة الخانية في منطقة التركستان وماوراء النهر، وثالث هذه الدول هى الدولة الغورية، أما الدولة الرابعة والأخيرة فهى الدولة الخوارزمية.

---

(١) أما المستشرقون فإنهم يستخدمون المصطلح المغولى قرة ختاى(Kara Khitai)والكلمة الأولى صفة تعنى الأسود، أى الصينيين السود.

(٢) Bosworth,Kara Khitai,Encyclopaedia Of Islam (E-I)New edition, vol. IV., P.581.

(٣) تعرف هذه الأسرة أيضا تحت كلمة«الخانية» وذلك في المصادر الإسلامية، أما المستشرقون فيفضلون استخدام كلمة«الأيلكخانية»(أنظر دائرة المعارف الإسلامية تحت المادة المذكورة، وأيضا تحت مادة بغراخان.

وعلاقات دولة الخطا، وهى غير إسلامية، بالدول الإسلامية المعاصرة لها تتراوح بين طرفى نقيض، تتراوح بين العلاقات الودية والعلاقات العدائية؛ الودية التى يصل الود فيها إلى التحالف العسكرى، والعدائية التى يتصاعد فيها العداء إلى درجة الصراع الدموى والحروب المريرة. وكانت المبادرة في إقامة هذا النوع أو ذاك من العلاقات تأتى من جانب الخطا أو من جانب واحدة من الدول الإسلامية، وذلك تحت تأثير المصالح المشتركة، أو كانعكاس للتنافس على مناطق النفوذ.

وعلى المدى القصير فإن علاقات دولة الخطا بهذه الدولة أو تلك كانت في بعض الأحيان ذات نتائج إيجابية، وفي البعض الآخر ذات نتائج سلبية. أما على المدى البعيد، وعلى مستوى الدول الإسلامية ككل، وخاصة في منطقة الحدود، فإن علاقات دولة الخطا بالدول الإسلامية أفرزت نتائج سلبية، فقد أدت هذه العلاقات بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى إضعاف الدول الإسلامية المعنية واحدة بعد أخرى، مما هيأ المناخ الملائم لدولة الخطا فتثبتت دعائمها أولا ثم أمنت استمرار وجودها على حساب هذه أو تلك من الدول الإسلامية.

* * *

والمصادر المستخدمة في هذا البحث قسمان؛ مصادر إسلامية ومؤلفات المستشرقين، ومن بين مصادر القسم الأول ينفرد ابن الأثير بأنه قدم أكبر قدر من المعلومات عن دولة الخطا وعلاقاتها بالدول الإسلامية المعاصرة، ومعلومات ابن الأثير، وهو معاصر للفترة موضوع الدراسة، موضع ثقة وتقدير من الدارسين، غير أنها متناثرة على مدى زمنى طويل، ثم أنها في حاجة لقدر كبير من المناقشة والتحليل، وخاصة حينما تتعارض مع المعلومات التى تمدنا بها مصادر من الجانب الآخر.

ويمكن القول أنه عن ابن الأثير نقل كثير من المؤرخين اللاحقين، مثل الذهبى وصاحب المختصر في أخبار البشر وابن خلدون وغيرهم، وهذا القول لايعنى أننا لا نجد عند بعض اللاحقين إضافات أصيلة ولها قيمتها ودورها في تقديم هذه الدراسة.

أما بالنسبة لمؤلفات المستشرقين فإن الباحث لايجد فيها الكثير مما يساعده في التعرف على تاريخ الخطا، فهذا هو المستشرق الروسى بارتولد(W.Barthold) وهو يتمتع بمكانة طيبة لدى الدارسين لم يخصص للخطا في كتابه المعنون«تاريخ الترك في آسيا الوسطى»(١) سوى محاضرة واحدة تقع في صفحات، وإلى جانب ذلك فإن اهتمام بارتولد بالجوانب الحضارية في هذا الكتاب يفوق بكثير عنايته بالتاريخ.

---

(١) هذا هو عنوان الترجمة العربية، والأصل الأول لهذا الكتاب مكتوب باللغة التركية، وعنه توجد ترجمة المانية وأخرى فرنسية، وثالثة إنجليزية، وقد نشرت الترجمة الإنجليزية في لندن سنة ١٩٢٨م، وتحمل العنوان التالى:

Turkestan down to the Monjol Invasion

أما المستشرق بسورث(C.E.Bosworth) والذى كتب البحث الخاص عن القراخطاى في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية، فقد جاء بحثه موجزاً وإشاراته إلى الأحداث التاريخية سريعة وعابرة، وذلك شأن معظم مايكتب في هذه الموسوعة.

ويأتى بعد هذا وذاك المستشرق المجرى أرمينوس فامبرى(A.Vambery)وذلك فيما كتبه عن تاريخ بخارى، وللحقيقة فإن هذا المستشرق قد وقع في أخطاء لايستهان بها بالنسبة لدولة الخطا، غير أن هذه الأخطاء لاتحول بيننا وبين محاولة الإفادة منه في بعض عناصر هذه الدراسة.

ولاننسى في هذه المناسبة الإسهام الذى قدمه المستشرق برتسكنيدر(E.Bretschneider) والمتمثل في مؤلفه الذى يضم مجموعة من الأبحاث الخاصة بالعصور الوسطى، وذلك من خلال المصادر الشرقية الآسيوية.

ومن الضرورى ألا يغيب عن بالنا أن هؤلاء المستشرقين قد اعتمدوا في القسم الأكبر من كتاباتهم على مصادرنا الإسلامية، وبالإضافة إلى ذلك استعانوا أيضا بمصادر صينية وأخرى مغولية، وبعض النقوش التى تم العثور عليها في بعض المواطن من آسيا الوسطى.

هذا عن المستشرقين، أما الدارسون المسلمون فإنهم لم يلتفتوا بالقدر الكافى إلى هذه الدولة، ولعل ذلك يعود إلى حقيقة أن دولة الخطا لم تكن إسلامية، غير أن ذلك لايقلل من أهمية دارسة هذه الدولة، وخاصة من الزاوية ذات الصلة المباشرة بتاريخنا الإسلامى، وهى زاوية العلاقات السياسية بين هذه الدولة من ناحية، والدول الإسلامية المعاصرة لها من ناحية ثانية، كما أنه لايخفى علينا التقارب الزمنى بين نهاية دولة الخطا وبداية الزحف المغولى على الأقاليم الشرقية في العالم الإسلامى، وهذا يعنى، وبالتحديد، أن دراسة دولة الخطا، من زاوية علاقاتها السياسية بالدول الإسلامية في منطقة الحدود الشرقية، تعتبر المدخل الطبيعى لدراسة الغزو المغولى للعالم الإسلامى.

ومن هنا تتضح الضرورة الملحة لوجود مثل هذا البحث في المكتبة التاريخية الإسلامية، وهذا مانأمل أن نعالجه على الصفحات التالية.

٢- صورة عامة:

الموضوع الذى سنعالجه على هذه الصفحات يعالج زاوية واحدة فقط من مجموع الزوايا التى تشكل التاريخ العام، تلك هى زاوية العلاقات السياسية. والعلاقات بطبيعتها تتطلب على الأقل طرفين، وفي موضوعنا فإن العلاقات تتحرك بين مجموعة من الأطراف، طرف غير مسلم هو دولة الخطا، وأربعة أطراف مسلمين هم، وكما أشرنا سلفا، الدولة السلجوقية بخراسان والتى كان لها قدر معين من النفوذ السياسى على بلاد ماوراء النهر، والدولة الخانية التى كانت لها السيطرة المباشرة على التركستان وماوراء النهر، أو أقصى النواحى الشمالية الشرقية للعالم الإسلامى.

والطرف الثالث هو الدولة الغورية صاحبة بلاد الغور وعزنة، والتى بسطت سيادتها في فترة لاحقة على بعض النواحى في خراسان، وأخيرا الدولة الخوارزمية والتى كان مركزها خوارزم إلى الشمال من خراسان، وقد امتد نفوذها في فترة لاحقة حتى شمل الأقاليم الشرقية، وفي أوائل القرن السابع الهجرى بلغت هذه الدولة أوج قوتها وغدت وريثة لجميع مناطق الدول الثلاث السابقة، والتى تشترك مع الدولة الخوارزمية في خاصة واحدة وهى أنها دول الحدود الإسلامية الشرقية.

ومن السطور السابقة يتضح أننا في الزاوية التى سنعالجها سنغطى منطقة واسعة تمتد بين الصين شرقا إلى شواطئ بحر قزوين غربا، ومن بلاد الهند جنوبا إلى ماوراء بالا ساغون في الشمال، ومن ناحية التوقيت الزمنى فإن الموضوع يغطى حوالى مائة عام ومعظم سنوات هذه الفترة تقع ضمن القرن السادس الهجرى، على حين تقع سنوات قليلة منها ضمن القرن السابع.

هذا هو العمر العام للعلاقات بين دولة الخطا والدول الإسلامية المعاصرة لها ككل، وأما العلاقات بين دولة الخطا وكل واحدة من الدول الإسلامية فإن عمرها يختلف من دولة إلى أخرى، ولعل أقصر هذه العلاقات عمرا هى تلك المرتبطة بالدولة السلجوقية، تليها في ذلك الدولة الغورية فالدولة الخوارزمية، أما أطول هذه العلاقات عمرا فهى تلك المرتبطة بالدولة الخانية.

ونسارع فنقول: إنه لايوجد ارتباط بين عمر العلاقات ودرجة أهميتها، فقد تكون العلاقات قصيرة العمر، ولكنها تخلف آثارا بالغة الأهمية، وهذا ماحدث بالنسبة للدولة السلجوقية في خراسان، وفي المقابل فإن العلاقات مع الدولة الخانية، وعمرها طويل، كانت باهتة في آثارها والنتائج التى ترتبت عليها، وما ذلك إلا لأنه من الأمور المقررة أن الآثار والنتائج ترتبط بدرجة وقع الأحداث والتطورات، وأنه كلما كان الوقع عنيفا ومتلاحقا كلما كانت النتائج جوهرية والتغييرات حاسمة، والعكس أيضا صحيح.

* * *

هذا عن الجانب الإسلامى، أما بالنسبة للجانب الآخر فتوجد دولة الخطا، ورجال القبائل الذين أقاموا هذه الدولة زحفوا من شمال بلاد الصين صوب العالم الإسلامى حيث نجحوا في إقامة دولة لهم في التركستان وبلاد ماوراء النهر، وكانت مدينة بالاساغون في أقصى الشمال هى مركز هذه الدولة.(١)

---

(١) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢٣.

Bosworth op.cit-.P.581

وقد جعل مؤسس دولة الخطا، وأسمه باللغة الصينية-Yeh- Lu Ta-Shih-جعل من الديانة البوذية الدين الرسمى للدولة أو لنظام الحكم، وفي ظل هذه الدولة حققت المسيحية قدرا من الانتصار هناك. أما بالنسبة للإسلام فلم يسجل عنه أنه حقق انتصارا بين الخطا، وهذا مع ملاحظة أن القسم الأكبر من المواطنين في التركستان وبلاد ماوراء النهر كانوا مسلمين،(١) واعتمادا على إحدى الروايات التاريخية يقال إن آخر حكام دولة الخطا كان قد اعتنق الإسلام ولكن بطريقة سرية(٢).

أما حكام دولة الخطا فكانوا يحملون لقب كورخان، ومعناه ملك الملوك أو أعظم الملوك أو سلطان السلاطين(٣). وقد تعاقب على حكم دولة الخطا عدد من الكورخانات أولهم، والذى أشرنا إلى اسمه سلفا، عمر في الحكم سنة وثلاثة أشهر على وجه التقريب(٤). فقد توفى في شهر رجب سنة ٥٣٧(يناير-فبراير ١١٤٣م)

وبعد وفاة مؤسس دولة الخطا خلفته في الحكم أرملته وإسمها بالصينية(Ta'Pu-Yen) وذلك لمدة ستة أعوام ١١٤٤-١١٥٠م(٥٣٨-٥٤٤هـ)، ثم خلفها في الملك الكورخان Yi-Lieh Chih-Lu-Ku الذى مكث في الملك اثنتى عشرة سنة(١١٥١-١١٦٣م(٥٤٤-٥٥٦هـ).

ويبدو أنه جاء عقب ذلك كورخان تولى الملك لمدة تزيد على عشرين سنة، وبعده وفي سنة ١١٧٨م(٧٨-٥٧٩هـ) بدأ عهد آخر الكورخانات، واسمه . وهو الأبن الأصغر للكورخان السابق، وقد توفى آخر حكام دولة الخطا في سنة ١٢١٣، أى بعد حوالى عام من سقوط هذه الدولة(٥).

---

(١) تعود بداية إنتشار الإسلام في هذه النواحى إلى حركة الفتوح الإسلامية التى قادها قتيبة بن مسلم الباهلى وغيره، وذلك أيام الدولة الأموية. أنظر فتوح البلدان للبلاذرى.

(٢) Bosworth,op.cit.,P.581-

(٣) ذهب إلى ذلك كل من ابن الأثير(جـ ١١ ص ٨٣) وبارتولد(المصدر السابق ص ١٢٣) وبوسورث(المصدر السابق ص ٥٨١) وترسم الكلمة عند المستشرق فامبرى(المصدر السابق ص ١٤٣) بدون حرف الواو بعد الكاف، ولم يحاول المترجم أن يبين معناها.

(٤) ابن الأثير جـ ١١ ص ٨٦؛ Bosworth,op.cit.,P.582.

(٥) Bosworth,op.cit.,P.582- وقد أشار ابن الأثير(جـ ١١ ص٨٦). وابن خلدون(جـ ٥ ص ١٤١) إلى وفاة أول ملوك الخطا في رجب سنة ٥٣٧هـ، كما أشار كل منهما إلى تولى أرملته عرش الدولة، ولكن بعد ابنة له لم تمكث على العرش طويلا، وقد وقع المستشرق فامبرى في خطأ كبير حينما ذكر أن الملك الذى أسس دولة الخطا هو نفسه الملك الذى سقطت الدولة في عهده، وذلك بعد إحدى وثمانين سنة، وكان آنذاك في الثانية والتسعين من عمره(تاريخ بخارى ص ١٥٦) ومن المرجح أن منشأ هذا الخطا قد جاء من اعتقاد فامبرى أن كلمة كورخان إسم وليست لقبا، والغريب أن مترجم الكتاب لم يصحح هذا الخطأ.

٣- بين الخطا والدولة السلجوقية:

الحديث عن العلاقات بين الخطا والدولة السلجوقية يرتبط جغرافيا ببلاد ماوراء النهر التى كانت نقطة الاحتكاك الأساسية بين الجانبين، ويلتقى تاريخ هذه البلاد مع الدولة السلجوقية من خلال ثلاثة من سلاطين هذه الدولة، وهم ألب أرسلان وابنه ملكشاه وحفيده سنجر شاه بن ملكشاه، فقد لعب كل من هؤلاء الثلاثة دورا في إقامة علاقات طيبة بين الأسرة السلجوقية والأسرة الخانية، أو في ترسيخ النفوذ السلجوقى في بلاد ماوراء النهر.

ونبدأ بأول الثلاثة، السلطان ألب أرسلان الذى حكم من سنة ٤٥٥ إلى سنة ٤٦٥هـ(١٠٦٣-١٠٧٢م) فقد سجل التاريخ لهذا السلطان عدة أعمال ترمى كلها إلى تحقيق شئ من الهدفين اللذين أشرنا إليهما سلفا، وأول هذه الأعمال يرجع إلى النصف الأخير من سنة ٤٥٦هـ(١٠٦٤م) فقد ذهب ألب أرسلان آنذاك إلى مدينة مرو، وهناك زوج ابنه ملكشاه بابنة خاقان، ملك ماوراء النهر(١).

ويمكن أن يقال عن هذه المصاهرة إنها مصاهرة سياسية هدفها الأساسى توثيق العلاقات الطيبة بين الأسرة السلجوقية والأسرة الخانية، وهذا ماهدف إليه ألب أرسلان أيضا من وراء تزويج ابنه أرسلانشاه بابنة صاحب عزنة، وهو الزواج التى علق عليه ابن الأثير بقوله:(٢) «واتحد البيتان البيت السلجوقى والبيت المحمودى، واتفقت الكلمة».

ومن المرجح أن هذه المصاهرة في أول الأمر بدا وكأنها حققت قدرا من الهدف الذى كان يرمى إليه ألب أرسلان، ويدلنا على ذلك ماتشير إليه المصادر من أن السلطان السلجوقى عبر في سنة ٤٥٧هـ نهر جيحون حيث استقبله ملك جند استقبالا طيبا، فما كان من السلطان السلجوقى إلا أن أقره على مابيده وأحسن إلية وأكرمه(٣).

ويمكن أن ينظر إلى هذه الزيارة بوصفها خطوة أخرى على طريق توثيق العلاقات الطيبة بين الأسرة السلجوقية والأسرة الخانية، أو على طريق إخضاع بلاد ماوراء النهر للدولة السلجوقية.

على أية حال، فإنه يبدو أن التطورات الداخلية في الأسرة الخانية أتت ببعض التغييرات التى لم تكن في صالح المخططات السلجوقية، وبالتالى وفي سنة ٤٦٥ عبر السلطان ألب أرسلان نهر جيحون بجيش ضخم وذلك ليرغم شمس الملك تكين، كبير الأسرة الخانية، على الخضوع له، ولكنه مات قتيلا قبل أن يحقق غايته(٤).

---

(١) ابن الأثيرجـ ١٠ ص ٤١؛ بارتولد، ألب أرسلان(دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية جـ ٢ ص ٥٠٣.

(٢) جـ ١٠ ص ٤١.

(٣) المصدر السابق جـ ١٠ ص ٤٩.

(٤) المصدر السابق جـ١٠ ص ٧٣-٧٤؛ فامبرى، تاريخ بخارى ص ١٣٧.

ومن ملاحظة الفترة التى عمل فيها السلطان ألب أرسلان على إخضاع بلاد ماوراء النهر لدولته(٤٥٥-٤٦٥هـ) نجد أنها تأتى بعد تاريخ أولى المحاولات التى قام بها الخطا لغزو بلاد ماوراء النهر، وذلك بحوالى خمسين سنة(١).

وهذا يعنى من وجهة نظر الخطا اعتداء من الدولة السلجوقية على أحد الأهداف التى كانت دولة الخطا وهى في الصين تسعى لتحقيقها، وفي الوقت نفسه فإن الدولة السلجوقية في عهد ألب أرسلان كانت من القوة بحيث لم تحاول دولة الخطا العمل على مجابهة هذا التغلغل السلجوقى، ولكن إلى حين.

كما يلاحظ أيضا أن الهدف الذى أراد ألب أرسلان تحقيقه من وراء المصاهرة التى عقدها مع الأسرة الخانية-هذا الهدف لم يتحقق إلا بشكل جزئى وفي نطاق ضيق، وهذا الإخفاق هو الذى حمل ألب أرسلان على محاولة غزو ماوراء النهر في السنة الأخيرة من عهده.

وننتقل بالحديث إلى السلطان الثانى ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) ونسارع فنؤكد أن الظروف بالنسبة له كانت أفضل منها بالنسبة لأبيه ألب أرسلان، فقد سجل له التاريخ أنه في سنة ٤٦٦هـ عبر نهر جيحون، ونجح في إخضاع صاحب سمرقند تحت سيادة الدولة السلجوقية(٢). وهذا يعنى أنه حقق الهدف الذى أراد أبوه تحقيقه في الشهور الأخيرة من عهده.

ويبدو أن صاحب سمرقند ظل على ولائه لملكشاه حتى وافته منيتة، ثم تولى الأمر من بعده ابن أخيه واسمه أحمد خان، وكان مكروها من رعيته مما حمل البعض على الاتصال بالسلطان السلجوقى وإغرائه ببسط سيادته المباشرة على سمرقند وغيرها، وفعلا زحف ملكشاه على رأس جيش ضخم، وتمكن في سنة ٤٨٢ من فرض سيادته المباشرة على مدينتى بخارى وسمرقند، كما أعلن الولاء والتبعية له ملك كاشغر(٣).

وقد تأكدت سيادة ملكشاه على بلاد ماوراء النهر حينما نجح، وبعد أشهر معدودة، من إخماد العصيان الذى قاده ضده أحد زعماء الأسرة الخانية في مدينة سمرقند، ويلاحظ أن ملكشاه لم يستعمل القسوة ضد قادة العصيان(٤). وذلك كسبا لمودتهم وعملا على تنمية العلاقات الطيبة معهم، وهى العلاقات التى تعود جذورها إلى علاقة المصاهرة التى أقامها من قبل ألب أرسلان.

---

(١) حدث ذلك في العقد الأول من القرن الخامس الهجرى، كما سيتضح لنا ذلك في الحديث عن الدولة الخانية.

(٢) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٩٢؛ ابن خلدون جـ٥ ص ٧ .

(٣) ابن الأثير جـ ١٠ ص ١٧١وما بعدها؛ ابن خلدون جـ ٥ ص ١٩-٢٠؛ فامبرى، المصدر السابق، غير أن فامبرى يضع هذه الأحداث ضمن سنة ٤٧٠هـ، وهذا مالم يقل به أى من المصادر الأخرى.

(٤) ابن الأثير جـ١٠ ص ١٧٣-١٧٤.

وفي ضوء ماحققه ملكشاه يمكن القول بأن بلاد ماوراء النهر غدت في السنوات الأخيرة من عهده أكثر تبعية للدولة السلجوقية منها في عهد أبيه السلطان ألب أرسلان، بل إن مدينة كاشغر، وهى أحد المراكز الرئيسية في التركستان، قد امتدت إليها السيادة السلجوقية.

• • •

يعتبر عهد ملكشاه العهد الذهبى للدولة السلجوقية الذى أخذت عقب وفاته تسير بسرعة في طريق التدهور والانحدار، أما العامل الأول لهذا الانتقال الكبير فإنه يكمن في الصراع الدامى والطويل الذى دار بين أولاد ملكشاه. وكان لهذا الصراع من الزاوية التى تعنينا نتيجتان؛ أولاهما التقليل من درجة تبعية بلاد ماوراء النهر للدولة السلجوقية، وثانيتهما انقسام الدولة السلجوقية إلى عدة دويلات من بينها الدولة السلجوقية في خراسان، والتى غدت بحكم موقعها مسئولة عن تبعية بلاد ماوراء النهر للسلاجقة

مع بداية القرن السادس الهجرى استقرت السيادة في خراسان لسنجر بن ملكشاه الذى ارتبط تاريخه بتاريخ خراسان ابتداء من سنة ٤٩٠هـ، وفي سنة ٥١١هـ أو السنة التالية خوطب سنجر بلقب السلطان، وهذا يعنى أنه أصبح كبير الدولة السلجوقية، وبقى سنجر حاملا لهذا اللقب حتى وافته منيته في سنة ٥٥٢هـ(١).(١٠٦٠م).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد برز، على مدى الربع الأول من القرن السادس الهجرى، بين رجال الأسرة الخانية أرسلان خان محمد الذى كان يحكم سمرقند وبخارى وغيرهما من بلاد ماوراء النهر، وفي الوقت نفسه فإن علاقة المصاهرة كانت تربط بين سنجر شاه من ناحية وأرسلان خان محمد من ناحية ثانية، فقد كان الأول متزوجا من ابنة الثانى، كما كان الثانى متزوجا من أخت الأول(٢).

وعلى مدى هذه الفترة سجل التاريخ العديد من الأحداث التى توضح مدى تبعية أرسلان خان محمد لسنجر شاه، ففى سنة ٥٠٣ ظهر منافس لأرسلان خان محمد، ذلك هو ساغربك الذى هاجم بعض مناطق نفوذ أرسلان خان محمد، فما كان من الأخير إلا أن طلب العون من سنجر، وفعلا بعث إليه بقوات كان لها دورها في إلحاق الهزيمة بساغربك ورجاله، ثم عاد العسكر السنجرى إلى خراسان(٣).

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٣٧-٤٢٨؛ الذهبى، تاريخ الإسلام، مخطوطة أحمد الثالث جـ ٥ حوادث سنة ٥٥٢هـ.

(٢) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٦٦٢، جـ١١ ص ٨٣؛ ابن خلدون جـ ٥ ص ١٥٧.

(٣) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٤٧٧.

وبعد مرور أربعة أعوام من التاريخ السابق نمى إلى سنجر مايفيد أن أرسلان خان قد خرج على تبعيته للدولة السلجوقية، فقصده سنجر برجاله، ولم تقع حرب بين الجانبين، وذلك لأن جهود الوساطة نجحت في إزالة الخلافات بين الرجلين، وتأكيد تبعية أرسلان خان محمد لسنجر السلجوق(١).

وفي كل الظروف التى كان يتعرض فيها أرسلان خان محمد لصعوبات داخلية كان يستعين بسنجر السلجوق الذى لم يتوان في تقديم المساعدة والمساندة إلى تابعه الزعيم الخانى، وفي سنة ٥٢٤هـ واجه أرسلان خان محمد ظروفا داخلية قاسية تمثلت في تمرد بعض أتباعه ضده، فطلب العون من السلطان سنجر، وبينما السلطان سنجر على رأس جنوده في الطريق إلى سمرقند تغيرت الظروف بحيث لم تعد هناك ضرورة لمساعدة السلطان سنجروالذى كان زحفه على سمرقند بعد أن تغيرت الظروف يشكل،من وجهة نظر أرسلان خان محمد، خطرا عليه وعلى نفوذه فطلب منه العودة إلى خراسان، بل ويقال أيضا إنه أعد مؤامرة لقتل السلطان السلجوق.

حينئذ واصل سنجر السلجوق زحفه على سمرقند، واستولى عليها عنوة، وبعث بصهره أرسلان خان محمد إلى ابنته زوجة السلطان سنجر، وقبل أن يعود إلى خراسان عهد سنجر بحكم سمرقند إلى محمود بن ارسلان خان محمد، وهو ابن أخت السلطان السلجوق(٢).

هذا هو الخط العام الذى يبين نوع العلاقات التى كانت، وعلى مدى سبعين سنة، تربط بين الأسرة السلجوقية من ناحية والأسرة الخانية من ناحية ثانية، وأيضا يوضح مستوى تبعية سمرقند وبخارى وغيرهما من بلاد ماوراء النهر للدولة السلجوقية، وجلى مما سبق أن النفوذ السياسى للدولة السلجوقية في بلاد الدولة الخانية كان محصورا في المناطق الغربية التى تقع على الشاطئ الشرق من نهر جيحون، أما كاشغر في الشرق، وهى مركز آخر من مراكز الدولة الخانية، فإن تبعيتها للدولة السلجوقية كانت على الأرجح اسمية وفي عهد ملكشاه، ولم تقدم المصادر مايفيد أن مدينة بالاساغون، في أقصى الشمال وهى مركز هام من مراكز الدولة الخانية أيضا، كانت تربطها بالدولة السلجوقية نفس الرابطة التى كانت تربط سمرقند وبخارى بهذه الدولة، وهذا يعنى أن المناطق التى تعرف تاريخيا ببلاد ماوراء النهر كانت، ومن خلال الأسرة الخانية، تابعة بشكل ما للدولة السلجوقية، أما النواحى التى يطلق عليها اصطلاح التركستان فإنها كانت مستقلة عن الدولة السلجوقية.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩٧ ــ ٤٩٨.

(٢) المصدر السابق جـ ١٠ ص ٦٦١ ــ ٦٦٢، جـ ١١ ص ٨٣؛ ابن خلدون جـ٥ ص ١٣٩.

هذه هى الصورة السياسية في المنطقة مع نهاية الربع الأول من القرن السادس الهجرى، وهو الوقت الذى أخذ فيه الخطا يزحفون من شمال الصين على هذه البلاد.

• • •

سبق لنا أن أشرنا إلى أن الخطا في شمال الصين حاولوا غزو تركستان في اوائل القرن الخامس الهجرى، وأن هذه المحاولة قد منيت بفشل ذريع، ولم يقدم الخطا على تجربة حظهم مرة أخرى إلا بعد أكثر من مائة سنة، وكانت الأوضاع الداخلية في تركستان وماوراء النهر أكثر ملائمة لهم هذه المرة إذا ماقورنت بها أثناء المحاولة السابقة.

في العقد الثالث من القرن السادس الهجرى نجح الخطا في السيطرة على كل من بالاساغون في الشمال وكاشغر في الشرق، ثم واصلوا زحفهم صوب الغرب، أى بلاد ماوراء النهر، وعند خجنده(١)، وفي شهر رمضان سنة ٥٣١(١١٣٧م) التقى جيش الغزاة مع قوات الخاقان محمود بن أرسلان محمد، حاكم سمرقند، وكانت الهزيمة من نصيب الأخيرين، فما كان من حاكم سمرقند إلا أن طلب العون العاجل من خاله السلطان سنجر شاه صاحب السيادة السياسية على سمرقند وغيرها من بلاد ماوراء النهر(٢).

إن التقدم الذى أحرزته قوات الخطا حتى الآن على حساب الخاقان محمود بن محمد لم يحدث تغييرا حاسما في الخريطة السياسية لهذه البلاد، فكثيرا ماتعرضت سيادة الأسرة الخانية في سمرقند وبخارى للاهتزاز الشديد، ولكنها كانت تجد في خراسان وفي قوات الدولة السلجوقية خير عامل لإعادة ترسيخ السيادة السياسية للأسرة الخانية من جديد.

هذا مايمكن أن يقوله الباحث في ضوء العديد من الأحداث السابقة والقريبة في صورتها من أحداث رمضان سنة ٥٣١؛ غير أن الجديد على الساحة أن العدو في هذه المرة قادم من وراء الحدود، وهو يقاتل معركة مصيرية، إذ لم تعد توجد له دولة في شمال الصين، وها هو قد ثبت وجوده في الشمال وفي الشرق، على حساب زعماء من الأسرة الخانية.

ويبدو أن السلطان سنجر شاه كان يدرك مدى خطورة الهزيمة التى لحقت بتابعه الخاقان محمود بن محمد خان، لاعلى الأسرة الخانية فحسب، بل وعلى دولته هو بخراسان، ومن ثم فإنه استعد واحتشد، واجتمع عنده، كما يقول ابن الأثير: «ملوك خراسان؛ صاحب سجستان والغور، وملك غزنة، وملك مازندان وغيرهم؛ فاجتمع له أكثر من مائة ألف فارس».(٣)

---

(١) خجنده بلدة بما وراء النهر على شاطئ سيحون، بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقا؛ أنظر ياقوت الحموى، معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٤٧.

(٢) ابن الأثير جـ ١١ص ٨٤-٨٥؛ بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢٣

(٣) جـ ١١ص ٨٥؛ وانظر أيضا ابن خلدون جـ ٥ ص ١٤٠.

في ذى الحجة سنة ٥٣٥ عبر السلطان سنجر نهر جيحون على رأس هذا الجيش الهائل، وهو على نية سحق الخطا وتدمير قوتهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد طرأت بعض التطورات التى غدت إيجابية بالنسبة للأعداء، ذلك أن السلطان سنجر تعرض للبدو الأتراك الذين كانوا يقيمون عند الشمال الشرقى من خوقند، وذلك استجابة لما طلبه منه الخان محمود كى يتخلص من مضايقاتهم، فما كان من هؤلاء البدو إلا أن انحازوا إلى جانب الخطا الأعداء(١). وفي مدينة سمرقند تلقى سنجر من كبير الخطا الكورخان رسالة تتضمن معنى الشفاعة في البدو الأتراك، ولكن السلطان السلجوقى رفض هذه الشفاعة، بل وطلب من كورخان الخطا أن يعتنق الدين الإسلامى، وتهدده وتوعده(٢).

أصبح السيف هو الحكم الوحيد بين الجانبين، وقد شهدت قطوان رحى المعركة الفاصلة بين الجانبين، وذلك في اليوم الخامس من صفر سنة ٥٣٦(سبتمبر١١٤١م) وقد أسفرت عن هزيمة ساحقة للقوات الإسلامية، ونجح سنجر وتابعه الخان محمود في الهرب من قبضة رجال الخطا بصعوبة.(٣) وهزيمة السلطان سنجر شاه في مواجهة الخطا الغزاة، وكان قد جاء في الأصل نجده لتابعه محمود خان يعنى أن الصراع الذى ترجع بدايته إلى أوائل القرن الخامس الهجرى والذى كان الخطا طرفا فيه على حين كان الخانيون الطرف الثانى- هذا الصراع قد وصل إلى نهاية حاسمة في صالح الأولين الذين توجوا بمعركة قطوان سلسلة انتصاراتهم التى مكنتهم من السيطرة على تركستان وما وراء النهر.

ومن وجة نظر الخانيين فإن هذا الذى حدث يعنى أن دولتهم التى أقاموها منذ منتصف القرن الرابع الهجرى قد انهارت، وأنهم تبعا لذلك قد دخلوا في طور جديد من تاريخهم.

ومن وجة نظر السلطان سنجر شاه السلجوقى فإن سيطرة الخطا على بلاد ماوراء النهر الإسلامية إثر هزيمته في معركة قطوان تعنى نهاية الفترة التى كان ينظر إليه فيها على أساس أنه الرجل الأقوى في المنطقة، بل ومن المرجح أن تكون لمعركة قطوان من الآثار ماهو أبعد من ذلك بكثير على مستقبله ومستقبل دولته.

---

(١) ابن الأثير جـ ١١ ص ٨٥؛ فامبرى، المصدر السابق، ص١٤٣.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) Bosworth,op.cit.,p.581; The Cambridge Medieval,History,vol.IV P.655.

وفوق كل هذا وذاك فإن معركة قطوان التى أكدت سيطرة الخطا على بلاد ماوراء النهر بعد سيطرتهم على تركستان تعنى حدوث تغيير خطير في الخريطة السياسية للعالم الإسلامى، فقد ضاعت منه هذه المناطق الهامة لحساب الخطا الكفار وهذا أول انحسار يعانى منه العالم الإسلامى في أقاليمه الشرقية منذ أن صارت هذه المنطقة جزءا منه.

وهكذا يتبين لنا أن الصراع بين الخطا من ناحية والسلطان سنجر شاه السلجوق من ناحية ثانية قد أفرز نتائج بالغة الخطورة على عدة جبهات، وذلك مع ماهو معروف من أن الصراع قد استغرق فترة قصيرة، وهى الفترة التى أصبح فيها سنجر شاه طرفا مباشرا في الصراع ضد الخطا، أى منذ معركة خجنده في رمضان سنة ٥٣١ وإلى معركة قطوان في صفر سنة ٥٣٦.

٤- بين الخطا والدولة الخانية:

الأسرة الخانية، كما في المصادر الإسلامية غالبا، والقراخانية أو الأيكلخانية(١)، كما تذهب المصادر الغربية، أسرة تركية من تركستان تنتمى إلى الأتراك الأويغور في أرجح الآراء(٢)، وترجع البداية المبكرة لقيام دولة باسم هذه الأسرة إلى الربع الثانى من القرن الرابع الهجرى حيث أخذ يبرز على مسرح الحياة السياسية في تركستان رجل اسمه بغراخان ويقال عنه أنه أول زعيم من الأسرة إعتنق الدين الإسلامي(١) وقد توفى ساتوق بغراخان هذا بعد أن وضع الدعائم الأولى للدولة القراخانية، وذلك في سنة ٣٤٤هـ(٩٥٥-٩٥٦م).

اتخذ ساتوق بغراخان من مدينة كاشغر في أقصى الشرق من تركستان عاصمة لدولته، وبعد فترة، ومع نمو الدولة، اتخذ حفيده بغراخان هارون بن موسى من مدينة بالاساغون في أقصى الشمال من تركستان عاصمة للدولة القراخانية(٢)،

---

(١) القراخانية أو Kara Khamids هو الاصطلاح المستعمل في تاريخ كامبرج للعصور الوسطى، انظر The Cambridge Medieval History, Vol. IV, P.655. وقد أستخدم المستشرق الروسى بارتولد هذا الاصطلاح في مؤلفه«تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٧٦؛ كما أستخدم مصطلح الأيكلخانية في دائرة المعارف الإسلامية؛ انظر الترجمة العربية مادة الأيكلخانية جـ ٣ ص ٢٠٥-٢٠٦؛ ومادة بغراخان جـ ٤ ص ٢٤-٢٦.

(٢) عن القبيلة الأم التى ينتمى إليها القراخانيون أقرأ المناقشة الممتعة التى أوردها بارتولد(تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٧٢-٧٦) ومن خلال هذه المناقشة يمكن الاستنتاج بأن القراخانيين ينتمون إلى واحدة من ثلاث قبائل تركية إحداها الأويغور أما فامبرى(تاريخ بخارى ص ١١٩-١٢٠) فيجزم بانتماء القراخانيين إلى الأويغور

وفي الفترة التى أخذ فيها نجم هذه الدولة في الصعود كانت شمس الدولة السامانية، صاحبة السيادة على خراسان وماوراء النهر، تميل بسرعة نحو الغروب. وبعد أن دعم القراخانيون أركان دولتهم في تركستان أخذوا يتجهون صوب الغرب والجنوب، أو بلاد ماوراء النهر، حيث كانت الدولة السامانية، وقد نجح رجال الدولة الفتية في الاستيلاء على مناطق نفوذ السامانيين فيما وراء النهر منطقة تلو الأخرى، وكان آخر انتصاراتهم الحاسمة الاستيلاء على بخارى في سنة ٣٨٩هـ(٩٩٨م)، وكانت بخارى آنذاك هى البقية الباقية من بلاد ماوراء النهر، وأيضا الرمز الأخير لوجود الدولة السامانية(٣)،

والنظرة العامة للدولة الخانية تقسم عهدها إلى ثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى هى مرحلة التأسيس والتوسع، وتبدأ هذه المرحلة بساتوق بغراخان الذى توفى سنة ٣٤٤هـ، وتنتهى في سنة ٣٨٩هـ، وهى سنة استيلاء الخانيين على مدينة بخارى، عاصمة السامانيين في منطقة ماوراء النهر. وتغطى المرحلة الثانية الفترة التى تقع بين الاستيلاء على بخارى وبداية عهد السلطان السلجوقى ألب أرسلان(٤٥٥-٤٦٥هـ.) فعلى مدى هذه المرحلة كانت الأسرة الخانية تبسط سيادتها وبقوة على كل مناطق التركستان وماوراء النهر، وفي الوقت نفسه كانت الدولة محررة تماما من أى تدخل أجنبى في شئونها السياسية، ومن ثم فإن هذه المرحلة يمكن تسميتها بحق المرحلة الذهبية في تاريخ الدولة الخانية

وتنتهى المرحلة الذهبية لتبدأ مرحلة الخضوع والتبعية، وتنقسم هذه المرحلة إلى فترتين؛ فترة التبعية للدولة السلجوقية، أو الدولة التى تقع إلى الجنوب الغربى من الدولة الخانية، وذلك في عهود كل من ألب أرسلان وملكشاه وسنجر شاه وفترة التبعية، أو بالأحرى الخضوع، للخطا، وتبدأ هذه المرحلة مع بداية العقد الرابع من القرن السادس الهجرى وتنتهى بسقوط دولة الخطا في أوائل العقد الثانى من القرن السابع الهجرى.

ونسارع فنقول:إنه يوجد فرق كبير بين مستوى التبعية في الفترة الأولى ومستواها في الفترة الثانية، ففى الفترة الأولى ظلت الدولة الخانية محافظة على شخصيتها السياسية، كما أن بعض مناطقها، وخاصة في الشرق وفي الشمال، بقيت مستقلة ولم تكن تابعة للدولة السلجوقية التى كان مركزها وراء حدود الدولة الخانية. أما في المرحلة الثانية فقد تسلط الخطا تسلطا كاملا

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٩٧.
(٢) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٧٣، ٧٨.
(٣) الذهبى المصدر السابق، حوادث سنة ٣٨٩.

على كل بلاد التركستان وماوراء النهر، صحيح أن الخطا قد أبقوا على زعماء الأسرة الخانية كل في المدينة التى كان يحكمها من قبل، ولكن الخطا طمسوا شخصية الدولة الخانية طمسا كاملا حتى انقلب زعماء الدولة الخانية إلى مجرد موظفين في دولة الخطا.

• • •

هذا، وننتقل بالحديث إلى قصة العلاقات بين الخطا والدولة الخانية فنقول: إنه يوجد توافق أو تقارب زمنى بين تأسيس الخانيين لدولتهم في التركستان، وإقامة أسرة لياءو(الخطا فيما بعد) دولة لهم في شمال الصين؛ فقد تأسست الدولتان كلتاهما في القرن العاشر الميلادى؛ وكما اتجهت حركة توسع الدولة الخانية صوب الجنوب الغربى؛ فقد حاولت أسرة لياءو أن تتوسع في نفس الاتجاه أيضا، وهذا يعنى أن توسعهم كان بالضرورة سيصتدم بالدولة الخانية التى تقع إلى الجنوب الغربى من دولة لياءو.

شهد العقد الأول من القرن الخامس الهجرى محاولة كبيرة من محاولات دولة لياءو التوسع على حساب الدولة الخانية، فقد سجل التاريخ أنه آنذاك زحف أحد ملوك هذه الأسرة تجاه الغرب(١)، أى التركستان بنية الغزو والاستيلاء على هذه البلاد. تمكن الخطا الغزاة بالفعل من السيطرة على بعض مناطق التركستان، ووصلوا في زحفهم حتى غدوا على مسيرة ثمانية أيام من مدينة بالاغاسون، عاصمة الإقليم الذى يقع في أقصى الطرف الشمالى من تركستان، وأيضا مركز الدولة الخانية.

وقد سجل التاريخ أيضا أن كبير الأسرة الخانية قد تصدى بنجاح للخطا الغزاة، وتمكن وتحت قيادته جيش ضخم يضم الكثير من المجاهدين المتطوعين-تمكن من دحر الخطا الذين أرغموا على الانسحاب والعودة من حيث أتوا دون أن يحققوا أى شئ من أهدافهم على الإطلاق.

هذا الذى حدث وشهدته منطقة بالاساغون أو الأطراف الشمالية للبلاد الإسلامية في تلك الجهات، سجلته أحداث السنوات الأولى من القرن الخامس الهجرى، ولايجزم ابن الأثير بتحديد السنة، بل إنه يذكر احتمالين؛ الأرجح منها في سنة ٤٠٨، والاحتمال الثانى يسبق تاريخه السنة الآنفة الذكر بخمسة أعوام. وتبعا لعدم الجزم في تحديد السنة فإن هذا قد انسحب أيضا على زعيم الدولة الخانية الذى قاد المسلمين في مواجهة الخطا؛ فهو إما طغان خان في سنة ٤٠٨، وإما أحمد بن علي قراخان فى سنة ٤٠٣(١).

---

(١) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢١-١٢٣.

واضح من الأحداث السابقة أن العلاقات بين دولة الخطا في شمال الصين والدولة الخانية كانت عدائية للغاية، أما أساس هذا العداء فهو قضية لا تقبل المصالحة؛ إنها قضية الأرض والسيادة؛ فالخطا كانوا يريدون التوسع بانتزاع الأرض الخانية، وكان الواجب الأول على الدولة الخانية هو المحافظة على الأرض بما ترمز إليه من دولة وسيادة.

وهكذا حاول الخطا غزو التركستان، ولكنهم فشلوا فشلا ذريعا، ويعود هذا الفشل من وجة نظر الدارس إلى عاملين أساسيين في الدولة الخانية؛ أولهما قوة الروح الدينية لدى الخانيين ورجالهم، وانطلاقا من هذه الروح فإنهم بتصديهم للخطا كانوا يجاهدون ضد الكفار، وبقوة هذه الروح اجتمع حشد هائل من المتطوعين تحت قيادة زعيم الأسرة الخانية، ولاشك أنهم خاضوا القتال واستبسلوا فيه بقوة تأثير هذه الروح الدينية.

العامل الثانى هو الوضع العام الذى كانت عليه الدولة الخانية آنذاك، وقد سبق أن أشرنا أن النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يشكل الفترة الذهبية في تاريخها، وذلك من زواياه المختلفة، السياسية والاقتصادية والحربية، فكان صعبا، بل مستحيلا، على الخطا أن يحققوا نصرا على الدولة الخانية وهى في فترتها الذهبية.

* * *

تمضى السنوات وتتغير موازين القوى لغير صالح الدولة الخانية التى اجتازت الفترة الذهبية في تاريخها، ونتيجة لذلك غدت مناطق منها، وخاصة في الغرب، تابعة بشكل ما للدولة السلجوقية. ويزداد التدهور وتتضاعف السلبيات، وتقع الدولة الخانية فريسة الانقسامات الداخلية من أجل مناطق النفوذ، وتسود بين زعماء هذه الدولة ظاهرة الصراعات والحروب الدامية؛ في التركستان وفي بلاد ماوراء النهر سواء(٢). وهذا بالإضافة إلى تدهور شديد أصاب العلاقات بين زعماء الأسرة الخانية ورجال القبائل الذين كانوا يشكلون القوة الأساسية الحامية للدولة والمدافعة عن حدودها،وخاصة الحدود الشمالية والشرقية (٣)

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى وقعت تغييرات جذرية بالنسبة للخطا، فقد سقطت دولتهم، أو دولة اسرة لياءو، في شمال الصين أمام غزاة من الشمال، وذلك بين سنة ١١١٦

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٩٧-٢٩٨؛ بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) ابن الأثير جـ ١١ ص ٨٢؛ الذهبى، المصدر السابق، حوادث سنة ٥٣٥هـ؛ فامبرى، المصدر السابق ص ١٤٣.

(٣) تحدث ابن الاثير عن التدهور الذى اصاب العلاقات بين زعماء الدولة الخانية ورجال القبائل في كل من إمارة كاشغر وإمارة سمرقند (جـ١١ ص ٨٢ ــ ٨٤) كما تحدث عن ذلك كل من بارتولد (تاريخ الترك من آسيا الوسطى ص ١٢٣)وفامبرى(المصدر السابق ص١٤٣)

وسنة ١١٢٣م(العقد الثالث من القرن السادس الهجرى) ونتيجة لهذا التغير الجذرى اضطر قسم كبير من الخطا، تحت زعامة واحد من رجال أسرة لياءو، إلى الزحف صوب الغرب من أجل العثور على وطن بديل عن وطنهم السليب(١).

كانت وجهة القوم إمارة كاشغر التى تشكل الجناح الشرقى من الدولة الخانية، وكان أميرها آنذاك(٥٢٢هـ ــ ١١٢٨م) هو أرسلان خان أحمد بن حسن الذى سجل له التاريخ أنه تمكن من إنزال هزيمة قاسية بالغزاة وردهم على أعقابهم مدحورين(٢)

في أعقاب هزيمة سنة ٥٢٢هـ مات زعيم الخطا و يطلق عليه ابن الأثير إسم«الأعور الصينى» وتولى الزعامة بعده آخر، ذلك هو الكورخان الذى أسمه Yeh-Lu ta-shihوقد أدخل الزعيم الجديد على خطة الخطا الرامية إلى الاستيلاء على التركستان تغييرا أساسيا، وتقوم الخطة الجديدة على غزو التركستان من الشمال حيث بالاساغون، لامن الشرق كما حدث في محاولة سنة ٥٢٢ الفاشلة.

وقد أثبتت الأحداث التى شهدتهاالسنوات القليلة التى أعقبت التاريخ السابق تنفيذ القوم للخطة الجديدة، وأيضا تحقق المرحلة الأولى من هدفهم في إقامة دولة لهم على أنقاض الدولة الخانية، فقد تمكنوا من الاستيلاء على بالاساغون، أو الإقليم الشمالى من التركستان، ثم واصلوا زحفهم صوب كاشغر التى استعصت عليهم منذ سنوات، ولكنها في هذه المرة، وتحت قيادة إبراهيم بن أرسلان خان أحمد، لم تتمكن من الصمود، وبالتالى سقط الجناح الشرقى من التركستان(١).

لم تحدد المصادر التى بين أيدينا التاريخ الدقيق لسقوط كل من بالاساغون وكاشغر تحت سيطرة الخطا، ولكن من التتبع الدقيق لأحداث هذه الفترة يمكن القول، مع قدر كبير من الثقة، بأن ذلك حدث في السنوات الأخيرة من العقد الثالث من القرن السادس الهجرى، وهذه السنوات نفسها هى التى تحدد بداية تأسيس الخطا لدولتهم التى أقاموها على حساب الدولة الخانية الإسلامية.

وبعد أن انتهى الخطا من التركستان واصلوا زحفهم إلى القسم الثانى من الدولة الخانية ، بلاد ما وراء النهر ، وقد شهدت هذه البلاد معركتين أولاهما في رمضان سنة ٥٣١ هـ والثانية في صفر سنة ٥٣٦هـ

---

(١) Bosworth, op, cit., 580-581.

(٢) ابن الأثير جـ١١ ص ٨٣؛ ابن خلدون جـ٥ ص ١٣٩-١٤٠.

(٣) ابن الأثير جـ ١١ ص ٨٣-٨٤؛ Bosworth, op. cit., P.581.

وفي المعركة الأولى التى دارت رحاها بالقرب من خجندة منى خان سمرقند ، الخاقان محمود بن أرسلان محمد، بهزيمة قاسية، وفي المعركة الثانية منى الخاقان وحليفه السلطان السلجوق سنجر شاه بهزيمة ترتب عليها العديد من النتائج الجوهرية وذات المدى البعيد، كما أشرنا إلى ذلك في مناسبة سابقة(١).

* * *

بهزيمة الحليفين الخاقان محمود والسلطان سنجر في معركة قطوان أنجز الخطا مخططهم الرامى إلى السيطرة على كل أراضى الدولة الخانية، وبالتالى دخلت المنطقة التى تضم التركستان وماوراء النهر مرحلة جديدة من تاريخها، كما دخلت أيضا الأسرة الخانية مرحلة جديدة من تاريخها، وأهم ماتتسم به المرحلة الجديدة من تاريخ المنطقة هو خضوعها لحكم أسرة غير إسلامية، وهذا يخالف الوضع الذى ساد المنطقة منذ تأسيس حكم الأسرة الخانية، أى منذ حوالى قرنين من الزمان.

أما بالنسبة للأسرة الخانية فإن أهم الملامح المميزة للمرحلة الجديدة من تاريخها هو درجة خضوعها للخطا الكفار، فقد كان هذا الخضوع من القوة بحيث مسخت الشخصية الخانية إلى حد كبير، وذلك لمدة تقرب من ستين سنة، وهذا هو محور الاختلاف بين الفترة التى خضعت فيها الدولة الخانية للدولة السلجوقية، والفترة اللاحقة والتى سيطرت فيها دولة الخطا على أراضى الدولة الخانية، ففى الفترة الأولى بقيت شخصية الدولة الخانية واضحة وبارزة حتى في المناطق التى كانت تابعة للدولة السلجوقية ،أى بلاد ماوراء النهر، ولم يكن للسلطان السلجوقى، ومركز دولته وراء الحدود، ممثل في أى من عواصم الدولة الخانية. أما في الفترة الجديدة فقد اتخذ زعيم الخطا من مدينة بالاساغون، مركزاللدولة، أى أن مركز دولته لم يكن وراء الحدود، وفي الوقت نفسه أبقى الخطا على زعماء الأسرة الخانية كل في إمارته واكتفوا بأن يكون لهم في كل مدينة ممثل يجبى إليهم الأموال(٢)، ومعنى هذا أن زعماء الأسرة الخانية انقلبوا موظفين لدى دولة الخطا.

ولانتسى أيضا أن سلاطين الدولة السلجوقية كانت تجمعهم بخانات الدولة الخانية رابطة العقيدة الإسلامية، على عكس كورخانات الخطا الذين لم يكونوا مسلمين.

وفي واقع الأمر فإن الوضع الذى وضع فيه زعماء الأسرة الخانية من قبل كورخانات الخطا كان وضعا طيبا بالنسبة للأولين، وذلك لأنهم كانوا من الضعف بحيث لم يعد في إمكانهم مقاومة مايفرض عليهم، حتى ولو كان التخلص نهائيا منهم أو إبعادهم إلى خارج البلاد.

---

(١) أنظر هذا البحث ص ٤٩ ــ ٥٠

(٢) ابن الأثير جـ ١١ ص ٢٥٩؛ بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢٥.

ومعنى هذا أن الضعف الذى منيت به الدولة الخانية في الربع الأول من القرن السادس الهجرى كان العامل الأول في نجاح أعدائهم الخطا، وأن استمرار هذا الضعف جعلهم يستكينون لكل مايفرض عليهم من قبل الأعداء.

ويتساءل البعض عن السر في إبقاء كورخانات الخطا على زعماء الأسرة الخانية كل في المدينة التى كان يحكمها، ويقدم الباحث أمرين أسهم كل منهما في جعل كورخانات الخطا ينتهجون هذه السياسة؛ الأمر الأول هو حاجة دولة الخطا إلى رجال يؤمنون لهم جمع الضرائب والأموال التى فرضوها على الخاضعين لهم(١)، وكان زعماء الأسرة الخانية في نظر الخطا أفضل العناصر التى تقوم بهذه الوظيفة، والأمر الثانى هو ماعمد إليه حكام دولة الخطا من تهدئة المشاعر الدينية لدى المسلمين في المنطقة، وخاصة أنهم كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة، فكان الإبقاء على زعماء الأسرة الخانية في مواقعهم أفضل وسيلة متاحة لتحقيق هذه الغاية.

* * *

مهما يكن من أمر، فقد رضى زعماء الأسرة الخانية بهذا الوضع لمدة ستين سنة على وجه التقريب، وذلك منذ الهزيمة التى لحقت كلا من الخاقان محمود والسلطان سنجر السلجوقى في سنة ٥٣٦هـ، وحتى أواخر القرن نفسه، رضى زعماء الأسرة الخانية بهذا الوضع لأنهم كانوا أضعف من مقاومته والعمل على تغييره، وذلك بالإضافة إلى أنهم لم يجدوا من جيرانهم المسلمين من يستطيع أن يقدم لهم العون والمساعدة للخلاص من دولة الخطا الكفار، أو يلعب الدور الذى كانت تلعبه من قبل الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر شاه.

ومع مضى الزمن أخذت الصورة في التغير؛ فقد تألق نجم علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش، واتسع نطاق دولته فشمل رقعة واسعة في شرق العالم الإسلامى. حينئذ أقدم كبير بيت الخانية، ويلقب خان خانان، أى سلطان السلاطين، وهو سلطان سمرقند وبخارى-أقدم على خطوة كانت بالغة الأهمية في تشكيل التاريخ السياسى للمنطقة، ذلك أنه بعث في سنة ٦٠٤هـ إلى خوارزم شاه يقول له(٢): «إن الله عز وجل قد أوجب عليك، بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود، أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدى الكفار، وتخلصهم مما يجرى عليهم من التحكم في الأموال والأبشار، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا، ونحمل إليك مانحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة».

---

(١) كانت الضريبة عبارة عن قطعة ذهب(دينار) تدفع عن كل بيت في العام أنظر بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ١٢٥.

(٢) ابن الأثير جـ ١٢ ص ٢٥٩؛ وانظر أيضا أبو الفدا جـ ٣ ص ١٤١؛ وابن خلدون جـ٥ ص ٢٢٠-٢٢١.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن دولة الخطا مع نهاية القرن السادس الهجرى كانت قد فقدت الكثير من قوتها التى سبق أن أملت بها إرادتها على الدولة الخانية، ومعنى هذا أن الظروف قد غدت مناسبة لإحداث تغيير في شكل العلاقات بين دولة الخطا من ناحية والأسرة الخانية من ناحية ثانية.

ومن الجانب الثالث كان السلطان خوارزم شاه أو علاء الدين محمد يتطلع إلى تحقيق المزيد من التوسع لدولته التى سبق لها أن حققت وبنجاح توسعا جوهريا على حساب العديد من الدول الإسلامية التى كانت قائمة في المنطقة، وإضافة إلى ذلك فإنه كان يدرك جيدا أن جيرانه الخطا يمرون بظروف صعبة نظرا للقوى المعادية التى ظهرت على حدودهم الشرقية والشمالية.

وفي ضوء كل هذه الاعتبارات استجاب خوارزم شاه لما طلبه منه كبير الخانية، وعبر برجاله نهر جيحون، واشتبك مع الخطا في سلسلة من المعارك كانت سجالا في أول الأمر، ثم تغير ميزان القوى لصالح الأعداء الذين تمكنوا من إنزال هزيمة مريرة بالقوات الخوارزمية، بل إن خوارزم شاه نفسه وقع في قبضة الأعداء أسيرا، ولكنه تمكن بعد ذلك من الإفلات(١).

أمضى خوارزم شاه بعد تخلصه من الأسر بقية سنة ٦٠٤ والسنة التالية في دولته، وقد تمكن خلال هذه الفترة من إعادة الوحدة إلى دولته، وهى الوحدة التى تمزقت نتيجة لهزيمته أمام الخطا وماأشيع من مقتله. ويبدو أن الرجل كان يخشى أن تنتهى به هزيمته إلى نفس المصير الذى انتهى إليه سنجر شاه عقب هزيمته سنة ٥٣٦، فقد تمزقت دولته وتغلب على نواحيها رجال كانوا في السابق من أتباع سنجر شاه والدولة السلجوقية(٢)، ومن ثم فإن التاريخ سجل لخوارزم شاه أنه بمجرد الانتهاء من إعادة الوحدة إلى دولته حشد مقاتليه،وعبر نهر جيحون لكى يغسل عار الهزيمة التى سبق أن لحقت به، وانضم إليه خان سمرقند برجاله، وفعلا دارت المعركة، وأسفرت عن انتصار مؤزر للحليفين المسلمين؛ أما الخطا وعلى رأسهم شيخ دولتهم والقائم مقام الملك فيهم، واسمه عند ابن الأثير طاينكوه، فقد حلت بهم هزيمة قاسية، وأخذ طاينكوه نفسه أسيرا، وأرسل إلى مدينة خوارزم(٣).

---

(١) ابن الأثير جـ١٢ ص ٢٦٣؛ ابن خلدون جـ٥ ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) The Cambridge Medieval History, VoL-IV,PP655-742.

(٣) ابن الأثير جـ ١٢ ص ٢٦٧-٢٦٨.

جرت هذه المعركة في سنة ٦٠٦هـ ولم تشر المصادر التى بين أيدينا إلى التاريخ الدقيق لهذه المعركة ولا للمكان الذى دارت عليه. والذى يعنينا أن انتصار خوارزم شاه في سنة ٦٠٦هـ فتح أمامه الطريق إلى السيطرة على بقية النواحى في بلاد ماوراء النهر، وفعلا تمكن من السيطرة وبسرعة على كل المدن والنواحى هناك، وذلك حتى مدينة أوزكند، في الشمال وعلى الشاطئ الغربى لنهر سيحون، وجعل نوابه في هذه المدن والنواحى(١)

عاد خوارزم شاه إلى مركز دولته مدينة خوارزم، وفي صحبته السلطان عثمان، سلطان سمرقند، أو حليفه كبير الأسرة الخانية، ولكى يدعم سيطرته على البلاد التى انتزعها من الخطا لجأ خوارزم إلى توثيق العلاقات مع سلطان سمرقند فزوجه من ابنته، ورده إلى مدينة سمرقند مركز دولته، وبعث معه شحنة، كما كان عليه الحال أيام خضوع سمرقند لدولة الخطا(٢).

أساء أتباع خوارزم شاه السلوك في سمرقند، مما حمل سلطانها على التخلص منهم بأسلوب بعيد عن الرحمة، بل وحاول الفتك بزوجته، ابنة خوارزم شاه، وفوق هذا وذاك بعث إلى ملك الخطا يسأله أن يبعث جيشا إلى سمرقند لكى يسلمها إليه(٣).

ومن هذا يترجح لدينا أن الرابطة الدينية التى سبق أن لوح بها خان سمرقند للسلطان خوارزم شاه لم تكن من القوة بحيث تحول بين الخان المذكور والاستعانة بالأعداء الكفار، ولا يستبعد أنه حاول أن يحقق كسبا لأسرته من خلال ضرب القوتين المتصارعتين كل منهما بالأخرى، ومن ثم فإن مااتهم به أتباع خوارزم شاه من إساءة للسلوك في سمرقند يبدو مبالغا فيه، أو ربما كان مجرد تعلة يبرر بها خان سمرقند أمام الآخرين ماسيقدم عليه من الاستعانة بالخطا الكفار ضد الدولة الخوارزمية الإسلامية.

على أية حال، فإنه في مواجهة هذا الانتقاض زحف خوارزم شاه على رأس مقاتليه إلى سمرقند، وتمكن من إلحاق هزيمة مريرة بخان سمرقند ورجاله، وأمر خوارزم شاه بإحضار الخان وقتله بين يديه هو وجماعة من أقاربه، وتتبع كل من ينسب إلى الخانية وقضى عليه(٤) ورتب في سمرقند«وفي سائر البلاد نوابه، ولم يبق معه في البلاد حكم».

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق، وانظر أيضا ابن خلدون جـ ٥ ص ٢٢٥

(٣) ابن الأثير جـ ١٢ص ٢٦٨

(٤)المصدر السابق ص ٢٦٩؛ ابن خلدون جـ٥ ص ٢٢٥-٢٢٦

ومن واقع الأحداث التى شهدتها المنطقة ابتداء من سنة ٦٠٤، وعلى مدى السنوات القليلة التالية يتبين للباحث أن الخطوة التى أقدم عليها كبير الأسرة الخانية حينما استعان بسلطان خوارزم ضد دولة الخطا أدت في النهاية إلى ضياع البقية الباقية من نفوذ الأسرة الخانية، لاتخليصها من ربقة التبعية لدولة الخطا، وما ذلك إلا لأن حسابات خان سمرقند لم تكن دقيقة، إذ أنه أراد أن يفيد من وجود بلاد ماوراء النهر بين قوتين تتطلع كل منهما إلى إضعاف القوة الأخرى، وغاب عنه أن موازين القوى آنذاك كانت في صالح الدولة الخوارزمية.

وهكذا أسدل الستار على الأسرة الخانية التى ارتبط تاريخها السياسى بالتركستان وما وراء النهر لفترة من الزمن تصل إلى قرنين ونصف من الزمان، وقد فرض عليهم الوضع الجغرافى لبلادهم أن يعلنوا نوعا من التبعية للدولة السلجوقية، ثم خضعوا بعد ذلك لحكم دولة الخطا، وكان في محاولة زعيم الأسرة الخانية في أوائل القرن السابع الهجرى التخلص من حكم الخطا النهاية الحاسمة لهذه الأسرة الإسلامية.

* * *

وفي سطور، وعن العلاقات بين الخطا والدولة الخانية، نقول: إن هذه العلاقات استغرقت مايزيد على مائتى عام(١)، وفي القسم الأكبر من هذه الفترة كانت العلاقات بينهما كدولتين متجاورتين، وقد حاولت دولة الخطا، انطلاقا من العداوة المتبادلة بين الدولتين، غزو التركستان وانتزاعها من الدولة الخانية، وذلك في العقد الأول من القرن الخامس الهجرى، وقد فشلت دولة الخطا في تحقيق هذه الغاية مما حملها على إرجائها، وبالتالى دخلت العلاقات بين الدولتين في فترة جمود عمرت مايزيد على مائة عام.

ثم وبعد أن سقطت دولة الخطا في شمال الصين بين أواخر العقد الثاني وأوائل الثالث من القرن السادس الهجرى، أخذت العلاقات العدائية تنشط بين الجانبين من جديد، وقد تمخضت سلسلة الصراع الذى دار بين الجانبين آنذاك عن نجاح الخطا في إزالة الدولة الخانية من كل من التركستان وما وراء النهر، ورضى زعماء الأسرة الخانية أن يبقوا في مواقعهم، ولكن كعمال أو حكام خاضعين أو تابعين لدولة الخطا. وفي نهاية هذه الفترة أراد زعيم الأسرة الخانية أن يتحرر من نير الخضوع لدولة الخطا، واستعان لتحقيق غايته بسلطان الدولة الخوارزمية، ولكن الأحداث التى تتابعت نتيجة لهذه الخطوة أدت في نهاية الأمر إلى وضع نهاية حاسمة للأسرة الخانية، وذلك حوال سنة ٦٠٦هـ.

---

(١) ننظر هنا إلى دولة الخطا في مرحلتيها أى المرحلة الصينية والمرحلة اللاحقة.

وفي إطار الموازنة فإن العلاقات بين الخطا والدولة الخانية تختلف عنها بين الخطا والدولة السلجوقية في خراسان؛ فالفترة التى غطتها العلاقات في الصورة الأخيرة كانت قصيره لم يتجاوز عمرها بضع سنوات. أما في الصورة الأولى فالأمر على النقيض تماما؛ فالفترة التى استغرقتها العلاقات كانت طويلة جدا تجاوزت قرنين من الزمان، والأحداث خلالها كانت هادئة عدا فترات قصيرة، وبالتالى فإن النتائج لم تكن حاسمة.

٥ ــ بين الخطاوالدولة الغورية:

ظهرت النواة الأولى لهذه الدولة في الربع الثانى من القرن السادس الهجرى، وذلك في بلاد الغور التى كانت تابعة آنذاك للدولة الغزنوية أيام بهرام شاه‌بن مسعود. وفي سبيل إقامة الدولة الغورية قتل اثنان من مؤسسيها هما محمد بن الحسين وأخوه سُودى اللذان قتلهما بهرام شاه.

وانتصر الأخ الثالث علاء الدين الحسين بن الحسين على بهرام شاه، واستولى على غزنة، غير أن هذا الاستيلاء لم يكن حاسما، وبالتالى دار صراع بين الجانبين، ولم يحسم إلا في سنة ٥٥٠هـ حينما زحف علاء الدين بقواته على غزنة واستولى عليها، وبالتالى أصبحت مملكته شاملة لكل من جبال الغور والإقليم الذى تقع فيه مدينة غزة التى كانت مركز الدولة الغزنوية.

توفى علاء الدين في سنة ٥٥٦هـ وحينئذ خلفه في الملك ابنه سيف الدين محمد الذى قتله الغز بعد عامين، وبالتالى آل الملك إلى غياث الدين محمد بن سام بن الحسين(١) الذى جعل من أخيه شهاب الدين أبى المظفر محمد ساعده الأيمن في إدارة الدولة الغورية.

من قراءة تاريخ الدولة الغورية يتبين لنا أنه قد خطط لهذه الدولة أن تتوغل بحدودها على حساب النواحى الجنوبية الشرقية، اى بلاد الهند، ومن هذه الزاوية فإن الدولة الغورية تعتبر استمرار اللدولة الغزنوية؛ فالدولة الأخيرة لها فضل الريادة في التوغل بالفتوح الإسلامية في عمق بلاد الهند ونشر الإسلام هناك، أما الدولة الغورية فإنها رسخت الإسلام في تلك النواحى، كما أنها أيضا توغلت بالفتوح الإسلامية إلى مناطق لم تصل إليها من قبل الدولة الغزنوية.

---

(١) ابن الأثير جـ ١١ ص ٢٧١، ٢٩٣؛ أبو الفدا جـ ٥ ص ٣٦-٣٧، ٥٣

تشكل بلاد الهند الميدان الجنوبى الشرق لنشاط الدولة الغورية، وإلى جانب هذا الميدان كان يوجد ميدان آخر انصرف إليه قدر كبير من نشاط هذه الدولة أيضا؛ ذلك هو الميدان الشمالى والذى يمتد فيشمل دولة الخطا في الشرق وإقليم خراسان في الغرب.

ولا يعنينا هنا أن نتحدث عن منجزات الدولة الغورية في بلاد الهند، إذ أن موضوع بحثنا يرتبط بالميدان الشمالى. ومن إلقاء نظرة على الموطن الأصلى للدولة الغورية، بلاد الغور وغزنة، وعلى الميدان الشمالى لنشاطها، وذلك بالإضافة إلى توقيت ظهورها، كونه مواكبا لظهور الدولة الخوارزمية إلى الشمال من خراسان-أقول: كل هذه الجوانب تجعل الباحث يدرك مقدما القوى التى ستتشابك علاقاتها في هذا الميدان.

كانت خراسان عقب وفاة السلطان سنجر شاه السلجوقى تعانى من حالة الفراغ السياسى، وكان من المحتم لهذا الفراغ أن يملأ بواحدة من القوتين الصاعدتين والمجاورتين لخراسان، وأعنى بهما الدولة الغورية في الجنوب أو الدولة الخوارزمية في الشمال. وكانت الدولة الغورية، إذا ماقورنت بمنافستها الدولة الخوارزمية، مطلقة اليد نسبيا للعمل في خراسان، ويرجع هذ التفاوت إلى عاملين أساسيين؛ أولهما أن دولة الخطا كانت بالنسبة للدولة الخوارزمية تشكل خطرا لايستهان به، ومثل هذا الخطر لم يكن موجودا في حالة الدولة الغورية، أما العامل الثانى فهو أن قوة الدولة الغورية في ذاتها كانت في العقدين الثامن والتاسع من القرن السادس الهجرى تفوق بكثير قوة الدولة الخوارزمية.

وفي ضوء هذه الاعتبارات سجل التاريخ لغياث الدين الغورى أنه بعد سنوات من بداية عهده تمكن من الاستيلاء على هراة، وعدة مدن أخرى من مدن خراسان(١) والدولة الغورية بهذ التوسع زاحمت الدولة الخوارزمية التى سبق لها، وحتى قبل وفاة السلطان سنجر شاه السلجوقى، أن فرضت سيطرتها على عدة مدن هامة من مدن خراسان، مثل سرخس ومرو ونيسابور(٢).

هذ من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد لعب غياث الدين الغورى دورا بارزا في الصراع الذى دار بين علاء الدين تكش وأخيه سلطان شاه والذى ترجع بدايته إلى سنة ٥٦٨ عقب وفاة خوارزم شاه أرسلان، ونتيجة لهذا الدور أصبح لغياث الدين قدر من النفوذ على مناطق معينة من خراسان، وهى تلك المناطق التى غدت من نصيب سلطان شاه، ثم حدث بعد وفاة سلطان شاه في سنة ٥٨٩ أن بسط أخوه تكش نفوذه على تلك النواحى من خراسان(٣).

---

(١) أبوالفدا، جـ ٥ ص ٣٧.

(٢) حدث ذلك في سنة ٥٣٦، وكان أتسز بن محمد آنذاك على رأس الدولة الخوارزمية، وقد انتهز فرصة الهزيمة التى نزلت بالسلطان السلجوقى أمام الخطا فى صفر من السنة المذكورة(انظر ابن الأثير جـ ١١ ص ٨٧-٨٨؛ ابن خلدون جـ ٥ ص ١٩٢-١٩٣).

(٣) أبو الفدا جـ ٥ ص ١١٧.

إن التطورات التى وقعت في الدولة الخوارزمية تعتبر من بعض زواياها معاكسة للدولة الغورية التى كانت لها هى الأخرى أطماعها التوسعية، وخاصة في خراسان، ومعنى هذا حدوث تصعيد جديد في العداء بين الدولة الغورية من ناحية وعلاء الدين تكش من ناحية ثانية.

* * *

تعتبر التطورات السابقة أحداثا داخلية من واقع حدوثها بين دولتين إسلاميتين، غير أن وجود نوع من الارتباط بين واحدة من هاتين الدولتين، وهى الدولة الخوارزمية، ودولة الخطا، انتقل بهذه التطورات من مستواها السابق إلى مستوى آخر غدت فيه دولة الخطا واحدة من أطرافه، وخاصة أنها هى الأخرى كان لها قدر من النفوذ على بعض النواحى في خراسان، ومعنى هذا أن الظروف غدت مهيأة لوقوع صراع بين الخطا والدولة الغورية.

شهدت سنة ٥٩٤هـ بداية وقوع هذه المجابهة التى انطلقت بدايتها من مدينة بلخ الخراسانية، ففى السنة المشار إليها توفى صاحبها وكان تركيا يدعى أزيه، وكان يحمل الخراج كل سنة إلى دولة الخطا، ونتيجة لموته زحف بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود، وهو ابن أخت غياث الدين الغورى وصاحب باميان، زحف على مدينة بلخ وسيطر عليها وقطع الحمل عن الخطا، وخطب لغياث الدين، وصارت بلخ نتيجة لذلك من جملة بلاد الإسلام، بعد أن كانت في طاعة الكافر، كما يقول ابن الأثير(١).

ونمضى مع المجابهة بين دولة الخطا من ناحية والدولة الغورية من ناحية أخرى فنقول: إن المصادر التاريخية تشير إلى أنه كان قد حدث في سنة ٥٩٢هـ أن تقدم خوارزم شاه تكش إلى الرى وهمذان وأصفهان، فسيطر عليها، وأظهر طلب السلطنة والخطبة له في بغداد، فأرسل الخليفة العباسى الناصر لدين الله(٢) إلى غياث الدين يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليصرف تفكيره عن قصد العراق(٣).

أرسل غياث الدين إلى خوارزم شاه يقبح فعله، ويتهدده بقصد بلاده وانتزاعها منه، فأرسل خوارزم شاه بدوره إلى الخطا يشكو إليهم من غياث الدين، ويقول، كما يحكى لنا ابن الأثير(٤): إن لم تدركوه بإنفاذ العساكر، وإلا أخذ غياث الدين بلاده، كما أخذ مدينة

---

(١) جـ ١٢ ص ١٣٤. وقد ذكر ابن كثير(جـ ١٣ ص ١٦) أنه في سنة ٥٩٤«ملكت الخرز مدينة بلخ، وكسروا الخطا وقهروهم»؛ وهذا خطأ واضح.

(٢) توفى هذا الخليفة في سنة ٦٢٢ بعد أن بقى في منصبه قرابة سبع وأربعين سنة.

(٣) ابن الأثير جـ ١٢ ص ١١٢، ١٣٥؛ ابن كثير جـ ١٣ ص ١٦، وللمزيد عن رغبة السلطان الخوارزمى في السيطرة على بغداد والخلافة العباسية، والجهود التى بذلها وصولا لهذه الغاية اقرأ النسوى، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ٤٩ وما بعدها، وأقرأ أيضا مادة ترمز في دائرة المعارف الاسلامية، الترجمة العربية.

(٤) جـ ١٢ ص ١٣٥.

بلخ، وقصد بعد ذلك بلادهم، و يتعذر عليهم منعه، و يعجزون عنه، و يضعفون عن رده عما وراء النهر».

كان المدخل الذى دخل من خلاله خوارزم شاه إلى إثارة الخطا ضد عدوه غياث الدين الغورى مدخلا معقولا، ذلك هو قضية الأرض ومناطق النفوذ، فقد سبق لغياث الدين أن انتزع منهم ماكانوا يتمتعون به من سيادة على مدينة بلخ، وها هو ذا النفوذ الذى كانوا يمارسونه على الدولة الخوارزمية يتعرض للاهتزاز أمام تطلعات غياث الدين الغورى، وإذا حدث ووقعت الدولة الخوارزمية تحت السيطرة المباشرة لغياث الدين فسيمثل ذلك مدخلا لانتزاع السيطرة على مناطق دولة الخطا نفسها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الخطا كانوا يدركون جيدا مقدارالخطر الكبير الذى يهدد دولتهم نتيجة تزايد قوة زعيم مسلم مثل غياث الدين الغورى صاحب الفتوحات الجليلة في بلاد الهند، ومعنى هذا أن رسالة خوارزم شاه إليهم وافقت ماكانوا يفكرون فيه من توجيه ضربة قوية إلى السلطان الغورى تجعله يصرف نظره عن الميدان الشمالى وما يدور فيه من أحداث.

في ضوء ذلك جمع ملك الخطا جيشا ضخما تحت قيادة رجله الثقة طاينكوه، وعبرت قوات الخطا نهر جيحون فى جمادى الآخرة سنة ٥٩٤ وزحفوا على بلاد الغور وهاجموها، ومع أن الأوضاع على الجانب الإسلامى كانت قاسية(١) إلا أن قوات الدولة الغورية تمكنت في النهاية من إنزال هزيمة مريرة بالخطا، وطاردوهم حتى عبروا نهر جيحون منهزمين إلى بلادهم(٢).

وتمر ست سنوات تجمدت إبانها العلاقات بين الخطا والدولة الغورية، غير أن العداء بين الجانبين بقى قويا، ولا شك أن الخطا كانوا يتحينون الفرصة لكى ينتقموا للهزيمة التى لحقت بهم من قبل من جانب الدولة الغورية، وجاءت الفرصة حينما استغاث بهم خوارزم شاه ضد شهاب الدين الذى حاصر مدينة خوارزم نفسها (٣)، ووجدها الخطا فرصة مواتية فأرسلوا جيشا كثيفا بغية الاستيلاء على مناطق الدولة الغورية، وفي مواجهة هذ التطورات اضطر الزعيم الغورى إلى رفع الحصار عن خوارزم والرحيل عنها لكى يدفع الخطا عن بلاده، ودارت

---

(١) كان شهاب الدين آنذاك ببلاد الهند ومعه القسم الأكبر من الجيش أما غياث الدين فكان مصابا بمرض النقرس الذى أعجزه عن الحركة.

(٢) ابن الأثير جـ١٢ص ١٣٥-١٣٦.

(٣) توفى غياث الدين ملك الدولة الغورية فى جمادى الأولى سنة ٥٩٩.

بين الجانبين وفي صحراء اندخوى معركة قاسية، وفي بداية المعركة كانت كفة شهاب الدين هي الراجحة إلا أن النهاية كانت على العكس من البداية، فقد انهزم شهاب الدين من الخطا هزيمة أكثر من قاسية، وذلك في صفر سنة ٦٠١هـ(١)، وبهذ الانتصار ثأر الخطا من الدولة الغورية بسبب الهزيمة التى سبق أن ألحقتها بهم في سنة ٥٩٤.

وتذكر إحدى الروايات التاريخية أن الهزيمة التى لحقت بشهاب الدين في صفر سن ٦٠١ قد انتهت بإقرار صلح بين الخطا والدولة الغورية، وأن الفضل في التوصل إلى هذ الصلح يعود إلى صاحب سمرقند الذى لم تشر المصادر التى بين أيدينا إلى اسمه، ولكن عرفته بأنه كان مسلما وهو في طاعة الخطا وقد خاف على الإسلام والمسلمين إن هم ظفروا بشهاب الدين(٢). فقد أكد صاحب سمرقند هذا للخطا أن الصلح أفضل لهم من مواصلة العداء مع الدولة الغورية التى ليس من السهل فرض الهزيمة عليها، وفعلا استقر الصلح بين الجانبين على أساس أن الخطا لايعبرون النهر إلى بلاده، وهو لايعبره إلى بلادهم(٣).

* * *

شهدت صحراء اندخوى هزيمة شهاب الدين الغورى أمام قوات الخطا، ولكن في العام نفسه شهدت مدينة ترمذ، في جنوب بلاد ماوراء النهر، انتصارا فرعيا للدولة الغورية، ففى ذى القعدة من سنة ٦٠١ سار أحد أمراء الدولة الغورية، وهو الأمير عماد الدين عمر بن الحسين الغورى إلى مدينة ترمذ التى كان يسيطر عليها الخطا، وافتتحها عنوة وقتل من بها من الخطا، وصارت ترمذ كما يقول ابن الأثير(٤): «دار إسلام».

ومعركة ترمذ التى انتصر فيها أحد أتباع الدولة الغورية على الخطا معركة فرعية لم تحدث نتيجتها تغييرا ذا بال في النتائج الأساسية التى أسفرت عنها المعركة الرئيسية، معركة اندخوى، فقد كان لهزيمة الدولة الغورية في هذه المعركة انعكاسات سيئة للغاية على كيان هذه الدولة ومستقبلها، وهذه الانعكاسات تذكر الباحث بتلك التى تتابعت على الدولة السلجوقية في خراسان نتيجة لهزيمة سنجر السلجوقى أمام الخطا في معركة قطوان.

على أية حال، فقد ترتب على هزيمة الدولة الغورية في معركة اندخوى أن خرج الكثير من أتباع الدولة ضدها وناصبوها العداء، وفي سبيل إخضاعهم بذل شهاب الدين الكثير من

---

(١) ابن الأثير جـ١٢ص١٨٦-١٨٧؛ ابن خلدون جـ ٥ ص ٢١٤. أما أبو الفد افإنه يذكر هذه المعركة ضمن أحداث سنة ٦٠٠هـ(جـ٥ص١٣٧) و يبدوأن بداية الصراع وقعت في السنة المذكورة، أما المعركة التى انهت الصراع فإنها دارت في صفر سنة ٦٠١.

(٢)ابن الأثير جـ١٢ص١٨٨-١٨٩؛ابن خلدون جـ٥ص٢١٥

(٣)المصدران السابقان.

(٤)جـ ١٢ ص ٢٠٦

طاقته ووقته في سنة الهزيمة وفي السنة التالية، بل إن شهاب الدين نفسه قد ذهب ضحية لجهوده التي بذلها من أجل إعادة الوحدة والقوة إلى دولته، فقد اغتاله بعض أتباع إحدى الجماعات المنشقة، وذلك في الأول من شعبان سنة ٦٠٢(٢).

بمقتل شهاب الدين أصيبت الدولة الغورية بضربة قاسية لم يكن من السهل التغلب عليها أو على مضاعفاتها الصعبة، فقد ازداد انقسام الدولة الغورية على نفسها، ودارت سلسلة من الحروب الأهلية بين الجماعات المتصارعة على الزعامة(٣)، مما أفقد هذه الدولة الكثير من قدرتها وفاعليتها السياسية، وخاصة ضد دولة الخطا.

برز في الصورة آنذاك غياث الدين محمود وهو ابن غياث الدين الراحل، ولم يتمكن الزعيم الجديد للدولة الغورية من إعادة الوحدة إلى دولته الممزقة. وفي هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الدولة الغورية نجد أن خوارزم شاه يحاول أن يحقق كسبا لنفسه ولدولته، وفعلا تمكن من انتزاع بعض المدن الخراسانية، وخاصة مدينة بلخ، وأما ترمذ فإنه أخذها وسلمها لحلفائه الخطا.(٤).

•

وزاد من تعقيد الموقف بالنسبة لغياث الدين محمود أنه تورط في عداء سافر مع خوارزم شاه، وذلك بمنحه الحماية لعلى شاه أخي خوارزم شاه ، والذي سبق له أن نادى بنفسه سلطانا على الدولة الخوارزمية مناوءة لأخيه، وكانت النتيجة تفجر الصراع بين خوارزم شاه وغياث الدين محمود، ومن ثم مقتل الزعيم الغوري في سنة ٦٠٥هـ وبمقتله سقطت الدولة الغورية التي يجمع المؤرخون على القول بأنها كانت من أحسن الدول الإسلامية(١).

• • •

وهكذا، وفي سنة ٦٠٥، سقطت الدولة الغورية، وقد لعبت دولة الخطا دورا أساسيا في إسقاطها، وقد تمثل هذا الدور في معركة اندخوى في أوائل سنة ٦٠١، وهي المعركة التي اندحرت فيها قوات الدولة الغورية أمام قوات دولة الخطا.

---

(١) ابن الأثير جـ١٢ ص ٢١٢-٢١٣؛ أبو الفدا جـ٥ ص ١٣٨.
(٢) ابن الأثير جـ١٢ ص ٢١٥؛ أبو الفدا ج٥ ص ١٣٨-١٣٩
(٣) ابن الأثير جـ١٢ ص ٢٢٩-٢٣١.
(٤) المصدر السابق جـ١٢ ص ٢٦٦-٢٦٧؛ أبوالفدا جـ٥ ص١٤٢؛ ابن خلدون جـ٥ ص ٢٢٤-٢٢٥

وعمر العلاقات بين الخطا والدولة الغورية لايتجاوز ثمانية أعوام، ومن هذه الزاوية فإنه يوجد تشابه قوى بين الدولة الغورية والدولة السلجوقية في خراسان فعمر علاقات كل من الدولتين بدولة الخطا لم يدم سوى فترة وجيزة، كما أن علاقات دولة الخطا بكل من الدولتين كانت عدائية بصفة دائمة، ولم يحدث أن تحسنت هذه العلاقات، ولو لفترة قصيرة، وقد تصاعد العداء في الحالتين، ولم يحسم إلا في معركة كانت نتيجتها لصالح دولة الخطا.

تتشابه المعركتان الحاسمتان؛ ففى كل منهما كانت دولة الخطا هى المعتدية أو المهاجمة أما الدولة الإسلامية فكانت في موقف دفاعى، يصدق هذا بالنسبة لمعركة قطوان في سنة ٥٣٦هـ وأيضا بالنسبة لمعركة إندخوى في سنة ٦٠١، وكما انتهت المعركة الأولى بهزيمة السلطان سنجر شاه السلجوقى فقد انتهت المعركة الثانية بهزيمة شهاب الدين الغورى؛ سلطان الدولة الغورية.

وكما أدى تداعى النتائج التى أسفرت عنها معركة قطوان إلى سقوط الدولة السلجوقية في خراسان(٢)، فقد واجهت الدولة الغورية نفس النهاية نتيجة لهزيمتها في معركة اندخوى.

وحتى الآن فإنه يتبين للباحث وجود نمطين من العلاقات السياسية مع دولة الخطا؛ نمط سارت عليه الدولة الخانية، ونمط آخر سارت عليه الدولة السلجوقية في خراسان وأيضا الدولة الغورية؛ فإلى أى النمطين تنتمى العلاقات بين دولة الخطا والدولة الخوارزمية، أم أنها تقدم نمطا جديدا ومغايرا للنمطين السابقين.

هذا ماسنقدم الإجابة عليه من خلال الصفحات التالية.

٦ ــ بين الخطا والدولة الخوارزمية:

تفرعت الدولة الخوارزمية عن الدولة السلجوقية والتى كانت تسيطر على خراسان وما وراء النهر، فقد أقر السلطان سنجر السلجوقى ولاية خوارزم لمحمد بن أنوشتكين، وبعد وفاة الأخير أسند السطان السلجوقى حكم خوارزم إلى ابنه أتسز.

ويبدو أن السلطان سنجر السلجوقى لمس شيئا من الخطر يتهدد دولته من جراء التطلعات التى كان يسعى إليها تابعه على خوارزم أتسز بن محمد وبالتالى فإنه زحف على خوارزم حيث اشتبك معه أتسز بن محمد في قتال انتصر فيه السلطان السلجوقى، وذلك في سنة ٥٣٣.

هذا من ناحية، ومن الناحية أخرى فإن ميول أهل خوارزم كانت مع أتسز بن محمد، الأمر الذى ساعده في العودة إلى خوارزم والسيطرة عليها من جديد، ولكن ليس بوصفه تابعا للسطان سنجر السلجوقى، بل بصفته مستبدا أو مستقلا.

وقعت هذه التطورات في سنة ٥٣٣، والنتيجة التي خرج بها أتسز بن محمد من هذا الموضوع تؤكد أنه نجح في اختبار صعب، اختبار فرضه عليه السلطان السلجوق، وكان هذا النجاح دعامة قوية لدولته الوليدة،أو خطوة كبيرة على طريق بناء كيان سياسي جديد، ومن ثم أخذت تتثبت أركان الدولة التي عرفت في تاريخنا الإسلامي باسم الدولة الخوارزمية(١).

وحتى هذه النقطة من التطورات فإن الأحداث التي شهدتها خوارزم تعتبر من أحداث العالم الإسلامي الداخلية، غير أن هذه الأحداث نفسها، ومع فترة وجيزة من الزمن، اكتسبت صبغة جديدة جعلت لها من الأبعاد مايفوق بكثير ماكان لها مع طبيعتها السابقة.

والذي نعنيه هو أن الصراع الذي شهدته خوارزم في سنة ٥٣٣، قد حملت أتسز بن محمد، وهو الطرف الضعيف في مواجهة سنجر السلجوق القوي، حملته على اتخاذ خطوة أسهمت إلى حد ما في تغيير مجرى تاريخ المنطقة، هذه الخطوة هي استغاثته بالخطا الذين استولوا في السنوات القليلة الماضية على التركستان، وهم أيضا يواصلون محاولاتهم للاستيلاء على بلاد ماوراء النهر.

ونص ابن الأثير في هذه الجزئية يقول وهو يتحدث عن أتسز بن محمد (٢)«يطمعهم (أي الخطا) في البلاد، ويروج عليهم أمرها، وتزوج إليهم وحشهم على قصد مملكة السلطان سنجر».

وليس من المعقول أن يضع الباحث مسئولية استدعاء الخطا، وما ترتب عليه من نتائج خطيرة على عاتق أتسز بن محمد؛ إذ الحقيقة أن الخطا كانوا سيقدمون على ماأقدموا عليه حتى ولو لم يستدعهم أتسز هذا، وذلك لأنهم قد سبق لهم، وفي السنوات القليلة السابقة على سنة ٥٣٣، أن استولوا على التركستان وأقاموا فيها دولة لهم، كما أنهم في سنة ٥٣١ هاجموا سمرقند المدينة الرئيسية في بلاد ماوراء النهر التي كانت تابعة للسلطان السلجوق سنجر شاه.

على أية حال، فقد سجل التاريخ للخطا أنهم قد زحفوا في جيش ضخم صوب سمرقند، وعند قطوان تمكنوا من إنزال هزيمة قاسية للغاية بالخان محمود وحليفه السلطان سنجر السلجوق، وذلك في سنة ٥٣٦، كما اتضح لنا ذلك في مناسبة سابقة(١).

---

(١) عن التفصيلات الخاصة ببداية تأسيس الدولة الخوارزمية اقرأ أبو الفدا جـ٥ ص٢٢؛ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٩-٤٠-١٨٩-١٩١.

(٢) جـ ١١ ص ٨١، ويوجد لدى الذهبي مثل هذا النص أيضا، وقد نقله عن ابن الأثير(أنظر تاريخ الإسلام جـ ٥ حوادث سنة ٥٣٥.

انظر هذ البحث ص٤٩ ــ ٥٠.

والذى نود أن نضيفه هنا هو أن الخطا بعد انتصارهم في معركة قطوان بعثوا فرقة من جيشهم تحت قيادة واحد من قوادهم اسمه أتوز، ونجح هذا القائد في توجيه ضربات شديدة إلى خوارزم ثم عاد إلى سمرقند، ولم ينجح أتسز في غسل هذا العار، بل إنه وفي سنة ٥٤٦هـ (١١٥١م) اضطر أن يتعهد للخطا بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دينار(١).

ومعنى هذا أن الخطا تعاملوا مع الأسرة الخانية وأتسز بن محمد على مستوى واحد أو متقارب، فقد أبقى الخطا على زعماء الأسرة الخانية كل في المدينة التى يحكمها، واكتفوا بوجود ممثل لهم في هذه المدن، ومهمته الأساسية هى جباية الأموال التى فرضوها على كل بيت، واعتبروها رمز خضوع البلاد لحكمهم، وهذا الأسلوب لايختلف كثيرا عن ذلك الذى طبقوه مع أتسز بن محمد صاحب الدولة الخوارزمية.

• • •

في جمادى الآخرة سنة ٥٥١هـ(١١٥٦م) توفى أتسز بن محمد، وخلفه في حكم خوارزم ابنه أرسلان الذى كان يشعر بالحرّى نتيجة للجزية المفروضة عليه من دولة الخطا، والتى تنقص إلى حد كبير من مكانته، بل ومن وضعه كحاكم لخوارزم. هذ من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن أرسلان هذا كان أضعف من أن يجابه دولة الخطا بمفرده، ولعل هذا هو الذى حمله على أن يقيم علاقة ودية مع السلطان سنجر السلجوقى، وذلك منذ أن صار وريثا لأبيه في حكم خوارزم، إذ تذكر المصادر التاريخية عنه أنه أرسل إلى السلطان سنجر يبذل الطاعة والانقياد، وأن مبادرته هذه قد قوبلت بالقبول من جانب السلطان السلجوقى الذى كتب له منشورا بولاية خوارزم(٣).

إن تحسين أرسلان بن أتسز لعلاقته بالسلطان السلجوقى سنجر شاه لم تسفر عن نتيجة إيجابية بالنسبة له، وذلك لأن السلطان السلجوقى نفسه كان قد وصل إلى مستوى متدنى من الضعف بحيث أن التحالف معه لم يعد يغير كثيرا في تشكيل موازين القوى بين العناصر المتصارعة في المنطقة، وهذا بالإضافة إلى أن سنجر نفسه توفى سنة ٥٥٢.

في السنة التالية أراد أرسلان بن أتسز أن يوجه ضربة لأعدائه الخطا حينما وقف إلى جانب أهل سمرقند ضد حاكمها الظالم والتابع لدولة الخطا، ولكنه أرغم على العودة إلى خوارزم دون أن يحقق شيئا ضد الأعداء(٤).

---

(١) فامبرى المصدر السابق ص ١٤٨-١٤٩.
(٢) ابن الأثير جـ١١ ص ٢٠٩.
(٣) المصدر السابق؛ ابن خلدون جـ٥ ص ١٩٤.
(٤) فامبرى، المصدر السابق ص ١٤٩.

هدأت الأوضاع بين دولة الخطا وأرسلان بن أتسز، وظلت على هدوئها حتى سنة ٥٦٧هـ، ففى السنة المذكورة عبرت قوات من الخطا نهر جيحون بهدف الاستيلاء على خوارزم، وفي الوقت نفسه تصدت لهم قوات الدولة الخوارزمية، وكانت المزيمة من نصيب الآخرين، والغريب أن الخطا رغم انتصارهم لم يواصلوا زحفهم لفرض سيطرتهم على خوارزم، بل أنهم عبروا النهر عائدين إلى بلادهم(١).

بعد هذه المعركة وفي سنة ٥٦٨هـ توفى أرسلان بن أتسز من مرضه الذى كان يعانى منه منذ فترة سابقة، وخلفه في الملك ابنه الصغير سلطان شاه محمود، ودبرت والدته المملكة والعساكر(٢).

بوفاة أرسلان بن أتسز في سنة ٥٦٨ هـ طويت صفحة معينة في سجل العلاقات بين دولة الخطا والدولة الخوارزمية ، وأبرز ما تتميز به هذه الصفحة هو اصطباغها بالعداء الذى أساسه رغبة كل من أتسز وابنه أرسلان في التخلص من مهانة التبعية لدولة الخطا ، التبعية التى تعبر عنها الجزية المفروضة من قبل الخطا على الدولة الخوارزمية.

وينبع التطور الجديد الذى طرأ على العلاقات بين دولة الخطا والدولة الخوارزمية من ثنايا الصراع الداخلى الذى شهدته الدولة الخوارزمية عقب وفاة أرسلان، فقد أثار اعتلاء سلطان شاه محمود عرش الدولة الخوارزمية-أثار حفيظة علاء الدين تكش، الابن الأكبر لأرسلان، والذى كان وقت وفاة أبيه مقيما في إقطاعه إلى الشمال الشرق من بحر آرال، ولكى يغير علاء الدين تكش الواقع الذى فرضه أخوه سلطان شاه في خوارزم لجأ إلى ملك الخطا، واستمده على أخيه سلطان شاه، واطمعه في أموال وذخائر خوارزم(٣). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن العرض الذى قدمه علاء الدين تكش لملك الخطا كان مغريا، وهذا بالإضافة إلى أنه سيفتح أمامهم الباب للمزيد من تأكيد سيطرتهم على خوارزم، فما كان من ملك الخطا إلا أن بعث معه بجيش كثيف تحت قيادة واحد من كبار قواده(٤).

حمل التحالف بين علاء الدين تكش والخطا سلطان شاه محمود على أن يبحث هو الآخر عن حليف له فاتجه إلى جاره المؤيد صاحب نيسابور وتوابعها، واستجاب المؤيد لدعوة سلطان

---

(١) ابن الأثير جـ١١ ص ٣٧٥.
(٢) المصدر السابق جـ١١ ص ٣٧٧؛ ابن خلدون جـ٥ص١٩٤؛ ويذكر فامبرى خطأ أنه توفى في سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م(أنظر تاريخ نجارى ص ١٥٠).
(٣) ابن الأثير جـ١١ ص ٣٧٧.
(٤) المصدر السابق؛ ابن خلدون جـ٥ ص ١٩٤.

شاه، وفعلا التقى الجيشان، جيش الخطا المناصر لعلاء الدين تكش، وجيش المؤيد المساند لسلطان شاه، وذلك عند بليدة سوبرنى، على بعد عشرين فرسخا من خوارزم، وانهزم عسكر المؤيد الذى أخذ أسيرا إلى علاء الدين تكش فقتله في الحال(١).

آذنت هذه الهزيمة بنهاية دولة سلطان شاه في خوارزم، فقد هرب بعد ذلك إلى دهستان فداهمها أخوه تكش واستولى عليها، فما كان من سلطان شاه إلا الهرب إلى نيسابور حيث طغان شاه بن المؤيد، ويبدو أنه لم يجد في نيسابور مايفيده كثيرا في أزمته ، أو يوفر له الأمن والحماية فتركها وذهب إلى غياث الدين ملك الغورية الذى أكرمه وأحسن ضيافته(٢).

• • •

بانتصار علاء الدين تكش ضد أخيه سلطان شاه في سنة ٥٦٨ دخلت العلاقات بين دولة الخطا والدولة الخوارزمية مرحلة جديدة أساسها خضوع خوارزم لدولة الخطا من خلال تبعية علاء الدين لملك الخطا، وهذا هو الأسلوب الذى طبقه الخطا مع الإمارات الأخرى مثل سمرقند وبخارى وغيرهما. هذا على حين أن علاء الدين كان يتطلع إلى تحرير نفسه وبلده من هذه التبعية، ويحدثنا ابن الأثير عن هذه الجزئية فيقول(٣): «وأما علاء الدين تكش فإنه لما ثبت قدمه بخوارزم اتصلت به رسل الخطا بالاقتراحات والتحكم كعادتهم، فأخذته حمية الملك والدين، وقتل أحد أقارب الملك، وكان قد ورد إليه ومعه جماعة أرسلهم ملكهم في مطالبة خوارزم شاه بالمال، فأمر خوارزم شاه أعيان خوارزم، فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا، فلم يسلم منهم أحد، ونبذوا إلى ملك الخطا عهده».

لم تشر المصادر التى بين أيدينا الى التاريخ الذى نبذ فيه علاء الدين عهد ملك الخطا، ومن المرجح أن ذلك حدث بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات من سيطرة علاء الدين على خوارزم، ومعنى هذا أن علاء الدين مكث تابعا للخطا منذ انتصارهم على سلطان شاه في أواخر سنة ٥٦٨هـ، وحتى تمردهذ ضدهم حوالى سنة ٥٧٢.

على أية حال فقد استغل سلطان شاه فرصة تدهور العلاقات بين أخيه والخطا، وذهب إلى ملك الخطا واستعان به ضد أخيه، وكما كان متوقعا استجاب ملك الخطا لما طلبه سلطان

(١) المصدران السابقان

(٢) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٧٨؛ أبو الفدا جـ ٥ ص ٧٢.

(٣) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٧٨، وانظر أيضا ابن خلدون جـ ٥ ص ١٩٥.

شاه ، وأرسل معه جيشا تحت قيادة القائد الذى سبق له أن ناصر علاء الدين ضد سلطان شاه. وقد وضعت قوات الخطا الحصار على مدينة خوارزم، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحامها، بل إنهم تعرضوا لخطر الموت غرقا نتيجة لكسر جسور نهر جيحون بأمر علاء الدين.(١).

وضع قائد الخطا مسئولية الفشل الذى منيت به قواته على سلطان شاه، فما كان من الأخير ألا أن عرض القيام بعمل بديل، ذلك هو قيادته لجيش من الخطا من أجل انتزاع مدينة مرو عاصمة خراسان، من دينار الغزى، المسيطر على المدينة وتوابعها منذ الاستيلاء عليها من سنجر السلجوقى في سنة ٥٤٨هـ(٢).

زحفت قوات الخطا تحت قيادة سلطان شاه على مدينة سرخس الخاضعة لدينار، وهناك منى الغز بهزيمة مريرة، ومن سرخس واصل سلطان شاه زحفه على مدينة مرو فملكها، وبعد ذلك عادت قوات الخطا إلى بلادها(٣).

هذه هى الرواية التى أوردها ابن الأثير نقلا عن البيهقى في كتاب«مشارب التجارب» وتوجد رواية ثانية عن مؤرخين آخرين مفادها أن سلطان شاه استغاث بالخطا ضد الغز أصلا وليس ضد أخيه علاء الدين(٤).

وسواء أخذ الباحث بهذه الرواية أو تلك فإنهما تتفقان في أن سلطان شاه بمساعدة الخطا تمكن من أنزال هزيمة مريرة بالغز الذين كانوا يسيطرون على مرو وغيرها من مدن خراسان، وأن المقاتلين من الخطا عادوا إلى بلادهم بعد أن حققوا هذا الانتصار.

ومن الزاوية التى تعنينا فإن الصراعات التى شهدتها المنطقة في العقد الثامن من القرن السادس الهجرى قد أسفرت عن نتائج محددة، منها انحسار سيطرة الخطا على خوارزم، ومنها أن الخطا عوضوا هذا الانحسار بكسب أرض جديدة لنفوذهم في خراسان، تلك هى مرو وتوابعها التى سيطر عليها سلطان شاه بمساعدة الخطا. وفي حساب الربح والخسارة يمكن القول بأن كفة الربح بالنسبة للخطا ترجح كفة الخسارة، وذلك لأن مرو وتوابعها غدت قاعدة لهم في الجانب الآخر من خوارزم ، أى أنهم وبعد هذا الكسب أصبح في مقدورهم الضغط على خوارزم وعلى صاحبها علاء الدين تكش من جهة جديدة لم تكن متاحة لهم من قبل ، وهذا فضلا عن أن مرو تمثل عمقا جديدا لامتداد نفوذ دولة الخطا إلى الغرب من جيحون.

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) ابن خلدون جـ ٥ ص ١٤٨-١٤٩.

(٣) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٧٨-٣٧٩.

(٤) المصدر السابق جـ ١١ ص ٣٨٠

وفي إطار هذه التطورات ارتمى الغز في أحضان طغان شاه بن المؤيد، صاحب نيسابور، وسلموا إليه قلعة سرخس، وترتب على هذا الاتجاه في العلاقات أن شبت على مشارف سرخس الحرب بين سلطان شاه حليف الخطا من ناحية، وطغان شاه ومعه الغز من ناحية ثانية، أما نتيجة هذا الحرب التى وقعت في سنة ٥٧٦ فكانت لصالح سلطان شاه الذى تمكن من الاستيلاء على سرخس وطوس والزام(١) وهذا يعنى إزدياد نفوذ الخطا متمثلا في توسيع رقعة المنطقة التى أصبح يسيطر عليها حليفهم سلطان شاه الخوارزمى.

ظل سلطان شاه مسيطرا على مرو وسرخس وغيرهما من مناطق خراسان، وذلك حتى وافته منيته في رمضان سنة ٥٨٩هـ(٢) ولكن هل بقى سلطان شاه مدة حكمه في خراسان، وهى ثلاث عشرة سنة، محافظا على ولائه للخطا؟. إن المصادر التى بين أيدينا لم تساعدنا في الوصول إلى قول قاطع في هذه النقطة، ولكن من المرجح أن سلطان شاه ظل على ولائه للخطا، وذلك لكى يجابه بهم أخاه علاء الدين، صاحب خوارزم، الذى كان يناصبه العداء، ومما يزكى هذ الترجيح أن المصادر لا تشير من قريب أو بعيد إلى حدوث توتر في العلاقات بين الخطا وسلطان شاه.

مهما يكن من أمر ، فقد ترتب على موت سلطان شاه أن اتسع نطاق دولة أخيه علاء الدين تكش، وذلك لأنه استولى على النواحى الخراسانية التى كانت خاضعة لسلطان شاه، وذلك في البقية الباقية من سنة ٥٨٩ وفي السنة التالية. ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى توترت العلاقات بين علاء الدين تكش من ناحية والدولة الغورية من ناحية ثانية، وهو التوتر الذى أدى بعلاء الدين إلى مكاتبة الخطا يحرضهم ضد غياث الدين، ويخوفهم من تزايد قوته، وبالتالى فتح الباب لتفجر الصراع بين الخطا من ناحية والدولة الغورية من ناحية ثانية، وقد أبرزنا ذلك في مناسبة سابقة(٣).

والذى نود أن نضيفه هنا هو أن ملك الخطا وضع مسئولية الهزيمة التى حلت برجاله في سنة ٥٩٤ أمام القوات الغورية على عاتق علاء الدين تكش، وطالبه بدفع مبلغ ضخم من المال في مقابل القتلى الذين سقطوا في المعركة(٤)، كما ألزمه أيضا بالحضور إلى عاصمة الدولة والمثول بين يديه.

---

(١) ابن الأثير جـ ١١ ص ٣٧٩.
(٢) المصدر السابق جـ ١٢ ص ١٠٧.
(٣) انظر هذا البحث ص ٦٢ ــ ٦٣.
(٤) طالبه بعشرة الآف دينار عن كل قتيل، وكان عددهم اثنى عشر ألف قتيل(انظر ابن الأثير جـ ١٢ ص ١٣٧).

وإنطلاقا من شعوره بصعوبة موقفه تجاه الخطا حاول علاء الدين أن يصلح علاقته من غياث الدين، ولكن السطان الغورى ربط تحسن العلاقات بينه وبين الزعيم الخوارزمى بإعلان الأخير طاعته للخلفة العباسى(١).

في هذه الظروف الصعبة بالنسبة لعلاء الدين وجه ملك الخطا جيشه إلى خوارزم، وفعلا وقعت العاصمة الخوارزمية تحت وطأة حصار الأعداء، ولكن علاء الدين استطاع أن يفسد مخطط القوم، وأن يرغمهم على رفع الحصار والعودة إلى بلادهم، وفي إثر القوات المنسحبة زحف هو على مدينة بخارى، والتى كانت تابعة للخطا، وتمكن من انتزاعها والسيطرة عليها(٢).

إن نجاح علاء الدين تكش في الدفاع عن عاصمة خوارزم ضد قوات الخطا المهاجمة، ثم ماحدث إثر ذلك من زحفه على مدينة بخارى وفرض سيطرته عليها، ولو لفترة قصيرة، يقدم مؤشرا مفاده أن هذا الرجل قد تمرد على التبعية التى كانت مفروضة عليه من قبل الخطا، وهذا يعنى أنه بهذا المستوى من العلاقات بين الخطا والدولة الخوارزمية ختم علاء الدين تكش حياته السياسية، إذ لم يمر طويلا على التطورات السابقة حتى توفى الرجل، وذلك في رمضان سنة ٥٩٦، ولكن يبدو أن شيئا واحدا حافظ الرجل عليه طوال حياته، ذلك هو عدم التوقف عن دفع الجزية إلى جيرانه الشرقيين(٣).

• • •

خلف علاء الدين تكش ابنه قطب الدين محمد الذى أطلق على نفسه لقب«علاء الدين» نفس اللقب الذى كان يحمله أبوه، وقد واجهت سلطان خوارزم الجديد مجموعة من الصعاب، أبرزها تلك التى أثارتها ضده الدولة الغورية، فقد استغل غياث الدين الظروف واستولى على عدة مدن ونواح من خراسان، وذلك في سنة ٥٩٧هـ، ولكن وفي السنة التالية تمكن علاء الدين محمد، وعن طريق القوة، من استرداد المدن والنواحى التى سبق أن انتزعتها الدولةالغورية، وخاصة مرو ونيسابور(٤).

---

(١) ابن الأثير جـ ١٢ ص ١٣٧؛ ابن خلدون جـ ٥ ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥

(٢) المصدران السابقان، أبو الفدا جـ ٥ ص ١٢٢.

(٣) فامبرى، المصدر السابق ص ١٥١.

(٤) ابن الأثير جـ ١٢ ص ١٧٣ ــ ١٧٥.

إزدادت العلاقات تدهورا بين علاء الدين محمد والدولة الغورية حتى هاجم شهاب الدين مدينة خوارزم نفسها، فما كان من السلطان الخوارزمى إلا أن طلب العون من الخطا، ولما علم شهاب الدين بزحف جيش من الخطا على بلاده رحل عن خوارزم ليتصدى لهم، وفعلا دارت بين الجانبين معركة قاسية في صحراء اندخوى أول صفر سنة ٦٠١هـ، وهى المعركة التى تحدثنا عنها وعن أبرز نتائجها في مناسبة سابقة(١)

إن استعانة علاء الدين محمد بالخطا ضد الدولة الغورية تؤكد أن الابن قد سار على نمط السياسة التى سبق أن انتهجها أبوه، وهى سياسة الاستعانة بالخطا في الظروف الصعبة، ثم محاولة الخروج على طاعتها إذا تحسنت الظروف، ولكن يبدو أنه حتى مع توتر العلاقات بينه وبين الخطا قد ظل محافظ على ذلك الخيط الرقيق، والذى يحدد طبيعة العلاقات بينه وبين الخطا، وأعنى به دفع الجزية السنوية والتى فرضها الخطا على الدولة الخوارزمية منذ سنة ٥٤٦.

ولكن، وفى السنوات القليلة التى تلت معركة اندخوى طرأت تغيرات جوهرية على المسرح السياسى، وأبرز هذه التغيرات سقوط الدولة الغورية في سنة ٦٠٥، وهى الدولة التى شكلت في سنواتها الأخيرة واحدا من أقوى التحديات التى جابهت الدولة الخوارزمية. وقد أراد علاء الدين محمد أن يحقق أكبر قدر من الاستفادة نتيجة لتحرره من ضغوط الدولة الغورية، وذلك بإحداث تغيير في طبيعة العلاقات المفروضة على دولته من قبل الخطا والمتمثلة في دفع الجزية السنوية.

شهدت سنة ٦٠٦ محاولة علاء الدين محمد فرض هذا الاتجاه على دولة الخطا، ففى التاريخ المذكور رفض الرجل دفع الجزية(٢) لهم، وفوق ذلك فإنه أراد أن يعاجل الخطا قبل أن يعاجلوه هم، فقاد جيشه وزحف على بلاد ماوراء النهر، وتمكن هو وحليفه كبير الأسرة الخانية، السلطان عثمان، سلطان سمرقند، من إنزال هزيمة قاسية للغاية بالخطا، وهى المعركة التى تحدثنا عنها في مناسبة سابقة(٣)،

وهكذا يتبين لنا أن سنة ٦٠٦هـ(١٢٠٥م) كانت سنة حاسمة في تاريخ العلاقات بين الخطا والدولة الخوارزمية؛ ففيها رفض علاء الدين محمد دفع الجزية، والرفض في ذاته له دلالته في إحداث تغيير في طبيعة العلاقات بين الجانبين. وفيها حل علاء الذين محل الخطا في النفوذ الذى كانوا يمارسونه على الأسرة الخانية وبلاد ماوراء النهر، وهذا يعنى أنه انتزع من

---

(١) انظر هذا البحث ص ٦٣ ــ ٦٤ .
(٢) فامبرى المصدر السابق ص ١٥٣.
(٣) انظر هذا البحث ص ٥٦ ــ ٥٧ .

الخطا منطقة كبيرة من دولتهم، ودلالة هذا أن علاء الدين بدأ يفرض على الخطا نمط العلاقات الذى يريده هو أن يسود بين دولته ودولتهم.

وفوق هذا وذاك، فإن ماحدث بعد فترة وجيزة من نجاح علاء الدين محمد في التخلص من الأسرة الخانية، وفرض سيادته المباشرة على ماوراء النهر يؤكد اكتمال ملامح تغير جوهرى في الخريطة السياسية لصالح الدولة الخوارزمية، وعلى حساب دولة الخطا.

• • •

شهدت السنوات الأولى من القرن السابع الهجرى تحقيق العديد من الإيجابيات لصالح الدولة الخوارزمية، كما شهدت السنوات نفسها العديد من السلبيات التى أخذت تعانى منها دولة الخطا، وذلك على أكثر من جبهة، وقد عرفنا في السطور السابقة تلك السلبيات التى عانى منها الخطا في علاقاتهم بالدولة الخوارزمية، أو الدولة التى تشترك معها في الحدود الغربية، وعلى الجانب الآخر من الحدود، الحدود الشمالية الشرقية برز عامل سلبى آخر، وذلك هو كوجلوك خان ابن تارينغ خان، أمير قبيلة النايمان التركية، والذى اضطر إلى الاندفاع هو وقبيلته صوب دولة الخطا، وذلك بسبب تزايد قوة جنكيز خان(١)

ولا يعنينا هنا أن نعرف المراحل التى مرت بها العلاقات بين دولة الخطا من ناحية وأمير قبيلة النايمان من ناحية ثانية، ويكفينا أن نقول إن هذه العلاقات في مرحلتها الأخيرة تدهورت بين الجانبين، وغدت المجابهة المسلحة هى السبيل الوحيد للفصل بينهما، وعندئذ حاول كل من الجانبين أن يكسب سلطان خوارزم إلى جانبه، وتذكر المصادر التاريخية أن ملك الخطا بعث إلى علاء الدين محمد يقول له (٢): «أما ما كان من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه، وقد أتى من هذا العدو من لاقبل لنا به، وإنهم إن انتصروا علينا وملكونا، فلا دافع لهم عنك، والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم، ونحن نحلف لك أننا إذا ظفرنا بهم لانتعرض إلى ماأخذت من البلاد، ونقنع بما في أيدينا».

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن أمير قبيلة النايمان قد بعث هو الآخر إلى سلطان الدولة الخوارزمية رسالة يحضه فيها على التحالف معه ضد دولة الخطا، وركز في رسالته على العداء الذى صبغ العلاقات بين الدولتين لفترة طويلة، أو كما يقول ابن الأثير(٣): «إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا؛ فساعدنا عليهم، ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لانقرب بلادك، ونقنع بالمواضع التى ينزلونها».

---

(١) فامبرى، المصدر السابق ص ١٥٥؛ واسم زعيم قبيلة النايمان في المصادر الإسلامية هو كشلى خان أو كشلوخان(انظر ابن الأثير جـ١٢ ص ٢٧٠ ــ ٢٧١؛ النسوى، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير جـ ١٢ ص ٢٧٠؛ وأنظر أيضا ابن خلدون جـ ٥ ص ٢٢٧.

(٣) جـ١٢ ص ٢٠٧.

وإذا نظرنا إلى العرض الذى قدمه أمير قبيلة النايمان لسلطان الدولة الخوارزمية نجده شبيها بذلك العرض الذى قدمه له ملك الخطا، فكلاهما طلب تحالف السلطان المسلم معه ضد الطرف الآخر، وذلك في مقابل عدم التعرض للمناطق التى يسيطر عليها علاء الدين محمد بعد تحقيق الانتصار. حقيقة أن العرضين متشابهان، ولكن أحد الطرفين المتصارعين، دولة الخطا، سجل علاقاته بالدولة الخوارزمية سئ للغاية، أما كجلوك خان فإن علاقته بالدولة الخوارزمية ليس فيها مايسئ، وإن كان لايمكن وصفها بأنها ودية.

على أيه حال، فإن الموقف الذى اتخذه السلطان علاء الدين محمد تجاه هذه القضية يؤكد أنه كان بعيد النظر في الناحية السياسية، إذ أنه أجاب كلا منهما بما يفهم منه تجاوبه مع المبادرة التى عرضها عليه، أو كما عبر ابن الأثير(١): «إننى معك ومعا ضدك على خصمك»

دارت المعركة بين الخطا والنايمان، ولم يشترك فيها السلطان علاء الدين محمد إلا بعد أن تبين له أن النصر في جانب الأخيرين، وبهذه المعركة التى دارت في سنة ٦٠٩هـ، أجهز على الخطا، أجهز عليهم كجلوك خان ورجاله، وأسهم في هذا الإجهاز أيضا سلطان الدولة الخوارزمية ورجاله. وبالتالى سقطت دولة الخطا بعد مايزيد قليلا على ثمانين سنة(٢)، شكلت خلالها عبئا ثقيلا على العالم الإسلامى في أقطاره الشرقية.

* * *

وهكذا، وبعد أن انتهينا من النقطة الخاصة بالعلاقات بين دولة الخطا والدولة الخوارزمية يتبين لنا أن هذه العلاقات قد اتسمت بخصائص ميزتها عن النمطين السابقين؛ النمط الذى شكل العلاقات بين الخطا وكل من الدولة السلجوقية في خراسان والدولة الغورية، وذلك الذى سار عليه الخطا في علاقاتهم بالدولة أو الأسرة الخانية.

فمن الناحية الزمنية واضح أن علاقات الخطا بالدولة الخوارزمية لم يكن عمرها قصيرا كما هو الحال مع الدولة السلجوقية والدولة الغورية، ولم يكن طويلا كذلك الذى كان مع الخانية، إذ أن عمر العلاقات بين الخطا والدولة الخوارزمية مساو تقريبا لعمر دولة الخطا، أى ثمانين سنة على وجه التقريب.

كانت العلاقات بين الخطا وكل من السلجوقية والغورية ذات صبغة واحدة، هى الصبغة العدائية، وظلت هذه الصبغة ثابتة، أما بالنسبة للدولة الخوارزمية فإن الخطا أرادوا لها أن تتحرك داخل إطار تبعية الدولة الخوارزمية لدولتهم، وأراد زعماء الدولة الخوارزمية أن

---

(١) المصدر السابق،

(٢) يذكر ابن خلدون أن دولة الخطا سقطت في سنة ٦١٢هـ(جـ٥ ص ١٤١) بينما يذكر بارتولد أن هذه الدولة سقطت في سنة ٦٠٩هـ(١٢١٢ ــ ١٢١٣م). انظر دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية جـ ٣ ص ٢٠٦.

يحركوها في إطار آخر، إطار يخدم مصالحهم ومخططاتهم، وكان هذا يقتضى من وجهة نظر الخوارزمية أن تكون العلاقات مع الخطا مرنة ومتشكلة تبعا للظروف والأوضاع. وقد نجح الخطا في فرض الأسلوب الذى أرادوه على امتداد القسم الأكبر من عمر هذه العلاقات، بينما نجحت الدولة الخوارزمية في فرض أسلوبها في السنوات الأخيرة والقليلة من عمر العلاقات بين الجانبين.

الدولة الخوارزمية هى الدولة الإسلامية الوحيدة التى استطاعت أن تجنى نتائج إيجابية من وراء علاقاتها بدولة الخطا، فقد استثمرت هذه العلاقات ضد السلطان سنجر شاه السلجوقى، وأيضا ضد الدولة الغورية، وهذا مالم يحدث بالنسبة لأى من السلجوقية أو الغورية.

كان التناقض في العقيدة الدينية الأساس في تشكيل سنجر شاه السلجوقى والدولة الغورية للعلاقات مع دولة الخطا التى لم تكن تدين بالإسلام، أما في حالة الدولة الخوارزمية فمن الممكن للباحث أن يقول: إن المصالح السياسية لدى رجال هذه الدولة قد طغت في بعض الأحيان على الالتزام الدينى، وبالتالى سجل التاريخ صورا من التحالف بين الخطا والدول الخوارزمية ضد هذه أوتلك من الدول الإسلامية.

النتيجة الأخيرة والحاسمة للعلاقات بين دولة الخطا وكل من سنجر شاه السلجوقى والدولة الغورية هى إسقاط هذين النظامين الإسلاميين بصورة مباشرة، وعلى العكس فقد سقطت دولة الخطا جزئيا بتأثير العلاقات العدائية بينها وبين الدولة الخوارزمية.

وكلمة أخيرة هى: إن العلاقات السياسية بين دولة الخطا والدول الإسلامية المعاصرة لها علاقات متشابكة ومتداخلة وأيضا معقدة، وهى فوق كل هذا وبعد كل هذا قد شكلت الخط الأساسى في التاريخ السياسى لهذه المنطقة في فترة بالغة الحساسية.

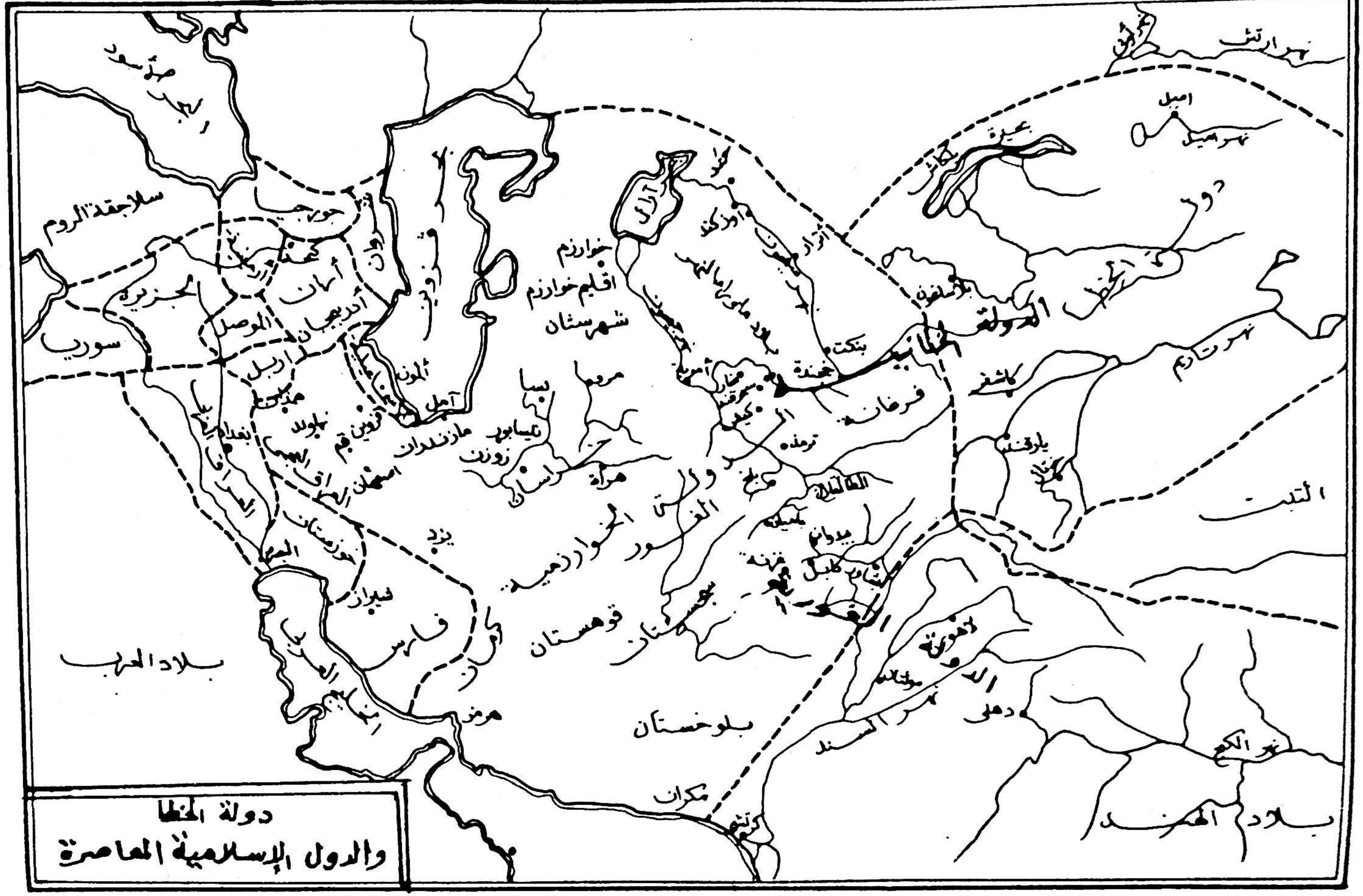

دولة الخطا
والدول الإسلامية المعاصرة